

المقامات العليّة

في موجبات السعادة الأبدية

المحدث الكبير

الشيخ عباس القمي



للطباعة والنشر والتوزيع



المقامات العلية

في موجبات السعادة الابدية

المقامات العلية

في موجبات السعادة الابدية

المحدث الكبير

الشيخ عباس القمي

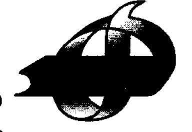
تــرجمـة

الشيخ أحمد وهبة



الطبعة الثانية

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م



دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/ ٠١ - ٨٩٦٣٢٩/ ٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري - بيروت - لبنان
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين. . .

وبعد يقول العبد المهجور ضعيف الحال، والعالق في شرك الأماني والآمال، عباس بن محمد رضا القمي، ـ بصره الله عيوب نفسه ـ، من الواضح والمستنير لكل عاقل أن سبب شرف بني نوع الإنسان على سائر الحيوانات، هو دفع الملكات الردية وصفات الرذائل، وكسب الأخلاق الحميدة وتحصيل الفضائل. وبحكم محكم العقل، ونص مستفيض النقل، أن اللازم على كل واحد من الأفراد وسالكي منهج السداد، أن يزيل عن مرآة القلب أولاً صدأ الرذائل، وبعد ذلك يحلّيها بحلل الفضائل، كما قيل:

تعريب شعر فارسي:

ان تـرد وجـه الـحـبـيـب أجـلُ الـفـؤادا

لا يــصــيــر الــصــخــر والــفــولاذ وردا

ظاهر أن التخلية من الصفات الرذيلة، والتحلية بالملكات الفاضلة، موقوفتان على معرفتهما؛ ومعرفة كيفية المعالجات المقررة، والمتكفل بتفصيل هذه المطالب هو علم الأخلاق.

ولقد ألف علماؤنا رضوان الله عليهم، في هذا العلم كتباً كثيرة ومن

جملة الكتب المصنفة في هذا الفن، التي هي محطّ نظر الأنام، ومقبولة بين الخاص والعام - كتاب (معراج السعادة) الشريف الذي خرج من القلم الدري للعالم العامل، والعارف الواصل، والحكيم الكامل، والفقيه الفاضل، جناب الحاج ملا أحمد النراقي (قدس سره). والحق أنه لم يؤلف كتاب باللغة الفارسية أفضل منه في هذا الفن الشريف. فعلى طالبي مراتب السعادة، أن يكون هذا الكتاب معهم في كل حال، ويستفيدوا من فوائده. ولكن بما أن هذا الكتاب الشريف كبير الحجم وثقيل الوزن، وحمله في كل الأحوال وبالخصوص لغالب الناس متعسر بل متعذر. لهذا وضعت غالب مباحثه في هذه الرسالة بشكل مختصر في عدة مقامات، يسهل حمله ونقله لكل شخص، وسميته (المقامات العلية في موجبات السعادة الأبدية).

ورتبته على مقدمة وبابين وخاتمة، ومن الله تعالى أرجو التوفيق والإعانة.

مقدمة

أعلم أن الإنسان مركب من شيئين:

أحدهما: هذا البدن الظاهر الذي يسمونه الجسم، والمركب من عناصر (أربعة)[1]، وهو من جنس هذا العالم.

والثاني: النفس التي يسمونها الروح والعقل والقلب، وهي جوهر مجرد من عالم الملكوت، وبسبب هذا الجوهر فضل الإنسان على سائر الحيوانات[2].

والإنسان بسبب هذين الجزئين لديه ألم ولذة، ومحنة وراحة. آلام البدن هي عبارة عن الأمراض والأسقام، وعلم الطب موضوع لبيان هذه الأمراض ومعالجاتها. وأمراض الروح هي عبارة عن الأخلاق الرذيلة الموجبة للهلاك السرمدي[3]، وصحة الروح اتصافها بالأوصاف القدسية.

إذن كما أن الإنسان محتاج في أمراض البدن إلى طبيب، وإلى شرب

---

(١) المراد باصطلاع القدماء: الماء، التراب، الهواء والنار، فمادة الإنسان البدنية وجدت من هذه العناصر.

(٢) وهو من جنس الملائكة المقدسة، والبدن عارية وبحكم المركب للنفس. . . معراج السعادة ص٩.

(٣) السرمدي: الدائم والأبدي.

الدواء، والوقاية، والامتناع عن لذات الجماع، والطعام الخسيسة، وأمثالها لتصحيح البدن ـ فهو في دفع الأمراض الروحية أحوج إلى المعالجة، وإلى الرجوع إلى علماء الأخلاق. فمرض الروح يمنع الإنسان من الوصول إلى اللذات الأبدية والسعادة السرمدية.

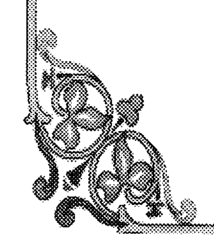
فاحذر أيها الأخ الحبيب أن تستهين بمرض الروح، ولا تعتبر معالجتها لعباً، ولا تستصغر مفاسد الأخلاق الرذيلة، ولا تقيسنَّ صحة الروح بصحة البدن، واعلم أن السعادة المطلقة لا تحصل إلاّ بأن تطهر ساحة النفس من الأخلاق الذميمة في جميع الأوقات، وأن تتحلى بجميع الصفات الحسنة. وإصلاح البعض أو في بعض الأوقات، وإن لم يكن خالياً من الثمر، إلاّ أنه لن يكون موجباً للسعادة الأبدية.

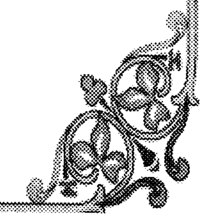


الباب الأول

في بيان سبب الانحراف عن الطريق الفاضلة، وحصول الأخلاق الذميمة، وبيان القوى الإنسانية،

وفيه عدة فصول:







الفصل الأول

اعلم أن الروح في مملكة البدن بمنزلة السلطان، ولديه جنود وخدم كثيرون من الأعضاء والجوارح، لكل منهم مهمة محددة، وشغل معين. ويوجد بينها أربع قوى تحكم المملكة، وتقود الجيش، وسائر القوى تحت سلطتها ومطيعة لأمرها؛ هذه القوى الأربع هي:

ـ **الأولى**: العقل الذي هو بمنزلة الوزير للروح.

ـ **الثانية**: الشهوة التي هي عامل الخراج الطماع الكاذب، الذي يخالف العقل دائماً.

ـ **الثالثة**: الغضب الذي هو كرئيس الشرطة القاسي المتهور والشرير، ويريد دائماً أن ينخدع به السلطان، ويعمل بما يقوله، ولا يطيع أمر العقل.

ـ **الرابعة**: الوهم وعمله المكر، والحيلة، والخيانة، والغش، والفتنة. ويريد أن يكون سلطان مملكة البدن مطيعاً له.

واعلم أن مملكة البدن هي دائماً ميدان معركة لها، حتى تتم غلبة الجميع من قبل واحدة من هذه القوى، وتصير الأخريات خاضعة لحكمها، ومنشأ النزاع هو القوة العاقلة، التي تمنع سائر القوى من أن تظهر آثارها، أما القوى الثلاث الأخر فلا نزاع بينها، من جهة أن أياً منها لا تنكر فعل

الأخرى إلاّ بإشارة العقل.

الفصل الثاني

اعلم أن لكل واحدة من هذه القوى الأربع المتقدمة لذة وألم.

لذة العقل في العلم والمعرفة، وألمه في الجهل والحيرة. ولذة الغضب في الغلبة والتسلط، وألمه في خلافه. وكذلك الشهوة والوهم لذة كل منهما في الشيء الذي هو مقتضى طبيعته وجبلته، وألمه في خلافه، وأعلى اللذائذ اللذة العقلية.

ويجب أن يعلم أن لدى الإنسان قوى وجوارح كثيرة، ولكنها جميعاً مطيعة ومؤتمرة لهذه القوى الأربع، ومصدر ومنشأ الخير والشر هو هذه القوى. فكل الرذائل والفضائل تنشأ منها. ولكن خيرات وحسنات القوة العاقلة في سيطرتها، وسيئاتها وشرورها في حال عجزها وضعفها مقابل سائر القوى، على عكس القوى الثلاث الأخرى.

الفصل الثالث

اعلم أن شأن القوة العقلية والوهمية هو إدراك الأمور، لكن الأولى تدرك الكليات، والثانية تدرك الجزئيات. وبما أن كل فعل يصدر من البدن هو من الأفعال الجزئية، إذن يكون مبدأ تحريك البدن في جزئيات الأفعال هو فكر ورويّة القوة الوهمية. من هذه الجهة يسمونها العقل العملي، والقوة العاملة، كما يسمون القوة العاقلة أيضاً العقل النظري. وشأن القوة الغضبية تحريك البدن نحو دفع الأمور غير الملائمة للبدن، والشهوية هي مبدأ حركته لتحصيل الأمور الملائمة.

فإذا غلبت القوة العاقلة سائر القوى، وجعلتها جميعاً مطيعة لها،

فستكون ـ طبعاً ـ أفعال جميع القوى على وجه الصلاح والصواب؛ وتحصل النشأة الإنسانية، وتصل فيها إلى التهذيب والطهارة، ويحصل لكل منها الفضيلة الخاصة بها. فيحدث من تهذيب القوة العاقلة صفة الحكمة، ومن القوة العاملة ملكة العدالة، ومن الغضبية الشجاعة، ومن الشهوية العفّة. هذه الصفات الأربع هي أجناس الأخلاق الفاضلة، وتندرج سائر الأوصاف الحسنة تحتها. وقد ذكر كثير من علماء الأخلاق لكل فضيلة من هذه الفضائل أنواعاً تندرج تحتها.

ولكن هذا خلاف مقتضى النظر[1] كما ذكر بعض المحققين؛ لأنه بعدما علم أن العدالة هي انقياد القوة العاملة للقوة العاقلة في تحريك القوة العاملة والغضبية والشهوية، يظهر أن جميع صفات الفضائل والأخلاق الحسنة هي بسبب تحريك القوة العاقلة للقوى الثلاث الأخر.

إذن كل صفة حسنة هي حقيقة من هذه القوى الثلاث، ولا شيء للقوة العاملة إلاّ التحريك. فإذا كان ذلك موجباً لاستناد كل فضيلة تحصل بسب ذلك للقوة العاملة، فيجب أن تكون جميع الفضائل مستندة لها، والجميع مندرجاً تحت العدالة، ولن يكون صحيحاً عدّ بعض الفضائل من نوع العدالة دون بعض. فمقتضى النظر الصحيح أن يقال: إن جميع الفضائل والرذائل مندرجة تحت الصفات الثلاث المذكورة وأضدادها، ومتعلقة بواحدة من القوى الثلاث، العاقلة أو الغضبية أو الشهوية، أو بقوتين، أو بالقوى الثلاث. ونحن في هذه الرسالة الشريفة سنبين أولاً الأوصاف الحسنة والصفات الرذيلة المتعلقة بالقوة العاقلة، ثم ما يتعلق

(١) المقصود أن الأوصاف الحسنة ترجع إلى ثلاث صفات وهي: الحكمة والشجاعة والعفّة، لا إلى أربع صفات. والمراد من العدالة مجّرد. انقياد القوة العاملة للقوة العاقلة. ويجب الإلتفات أيضاً إلى أن القوة الواهمة بعد انقيادها للقوة العاقلة تؤثر عليها أيضاً. (معراج السعادة).

بالقوة الغضبية، ثم ما هو منسوب للقوة الشهوية. وبعد ذلك سنبين الصفات المتعلقة بقوتين من هذه القوى، أو ثلاث إن شاء الله تعالى.

الفصل الرابع

لا شك أن مقابل كل صفة حسنة خلق سيء ضدها، فأجناس الرذائل أربعة، وضدها أربع فضائل، وهي: الجهل والجور والجبن والشره[1]. والتحقيق فيها أن لكل فضيلة حد مضبوط ومعين بمنزلة الوسط، وتجاوزه سواء كان إلى جانب الإفراط أو إلى جانب التفريط مؤدٍ إلى الرذيلة.

فصفة الفضيلة هي بمنزلة مركز الدائرة، وأوصاف الرذائل بمنزلة النقاط المفترضة على أطراف المركز، ولا شك أن المركز؛ نقطة معينة، وسائر النقاط على جوانبها غير متناهية، ومجرد الانحراف عن الفضيلة في أي طرف، موجب للوقوع في أوساخ الرذيلة. وهذا هو السبب في أن أسباب المفاسد والشرور، أكثر من بواعث الإحسان والخير. وبما أن إيجاد شيء معين من بين أمور غير متناهية أمر صعب؛ لهذا يكون إيجاد الوسط من الأخلاق والاستقامة عليه أمراً في غاية الصعوبة.

الفصل الخامس

يعلم من المباحث السابقة، أن مقابل كل صفة حسنة أخلاق رذيلة غير متناهية في طرفي الإفراط والتفريط. لكن ليس لكل منها اسم معين على حدة، بل لا يمكن عدها جميعاً، بل إن عدها ليس من شأن علم الأخلاق،

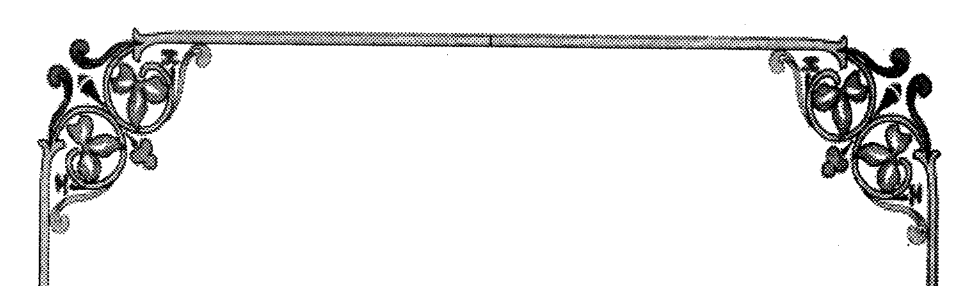
---

(١) الشَرَه (بفتح الشين والراء) في اللغة بمعنى شدة الميل والإفراط فيه، وضده الخمود (بضم الخاء) بمعنى السكون وعدم الحركة، وفي اصطلاح علم الأخلاق هو الإفراط في الشهوة والميول النفسية، وتفريطه الخمود ووسطه العفّة.

فوظيفته بيان القاعدة الكلية التي يدخل الجميع تحتها. والقاعدة الكلية هي ما عرفت من أن الأوصاف الحميدة لها حكم الوسط، والانحراف عنها إمّا إلى طرف الإفراط أو إلى طرف التفريط مذموم، وهو من الأخلاق الرذيلة. فمقابل كل جنسٍ من الصفات الفاضلة، جنسان من الأوصاف الرذيلة. مقابل الحكمة الجَربزة والبلاهة، ومقابل الشجاعة الجبن والتهور، ومقابل العفّة الشره والخمود، ومقابل العدالة الظلم، وتمكين الظالم من النفس على نحو الضعف والذلة، مع وجود القدرة على دفعه.

ولكل واحدة من الرذائل أيضاً أنواع لا تعد، ناشئة منها ومندرجة فيها. يتولد من الجربزة المكر والحيلة، ومن البلاهة الحمق والجهل المركب، ومن التهور الكبر والصلف والنعت والعجب، ومن الجبن سوء الظن والجزع والدناءة، ومن الشره الحرص، وعدم الحياء، والبخل والإسراف والرياء والحسد، ومن الخمود قطع النسل وأمثال ذلك. ولقد شرح علماء الأخلاق كثيراً منها وبينوه، ونحن أيضاً في هذه الرسالة سنبيّنه بشكل مجمل إنّ شاء الله تعالى.

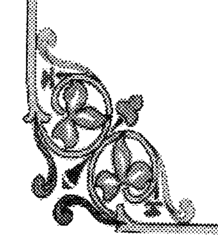


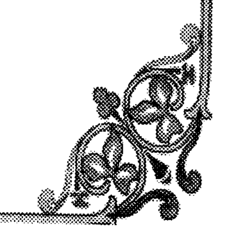


الباب الثاني

في تفصيل الأخلاق الحسنة والرذيلة، وفوائدها ومفاسدها، وكيفية اكتساب الأخلاق الحسنة ومعالجة الأوصاف الذميمة

وهو مشتمل على خمسة مقامات:





المقام الأول

في بيان ما يتعلق بالقوة العاملة الوهميّة التي هي العدالة بالمعنى الأعمّ، أي (الوسط) في جميع الأمور:

اعلم أن العدالة أفضل الفضائل، وأشرف الكمالات، لأنّها ملكة تحصل في نفس الإنسان، فيصير بسببها قادراً على تعديل جميع الصفات والأعمال، وتترتب عليها جميع الأخلاق الفاضلة، وهي على ثلاثة أقسام:

الأول: بين العباد وخالقهم، وهي اكتساب المعرفة، وتحصيل المحبة، والسعي في تنفيذ أمر الله في طاعة الأنبياء، والانقياد لأحكام الشريعة، والامتثال لآداب الدين والعرف.

الثاني: العدالة بين الناس، وهي أداء الحقوق، وردّ الأمانات، والإنصاف في المعاملات، وتعظيم كبار القوم، واحترام الشيوخ، ونصرة المظلومين، ومساعدة الضعفاء ونحوها.

الثالث: العدالة بين الأحياء والأموات ذوي الحقوق، مثل أداء قروضهم، وتنفيذ وصاياهم، وذكرهم بالتصدق والاستغفار والدعاء وغيره، وهذه العدالة بالمعنى الأعمّ. والعدالة بالمعنى الأخصّ التي هي مقابل الظلم ستأتي فيمّا بعد إنّ شاء الله تعالى.

المقام الثاني

في بيان معالجة الأخلاق الذميمة المتعلقة بالقوة العاقلة:

أحدهما في طرف الإفراط، والآخر في طرف التفريط، وتحتهما أنواع عديدة. ونحن سنبيّن أوّلاً الجنس مع ضده الذي هو الحدّ الوسط، وبعد ذلك سنشرح أنواعه إنّ شاء الله تعالى، ففي هذا المقام مبحثان:

المبحث الأول:

في بيان جنسي رذيلة القوة العاقلة وضدهما:

أما جنسي الرذيلة:

الأول: الجربزة:

وهي باعثة للخروج عن حدّ الاعتدال في الفكر في طرف الإفراط، وموجبة لعدم وقوف الذهن في مكان ما، بل يكون غير مطابق للواقع في إبداء الشبهات، واستخراج الأمور الدقيقة. وكثيراً ما ينجر في المباحث العقلية والعلوم الإلهية، إلى الإلحاد والكفر، وفساد العقيدة. بل يصل الأمر بصاحبه أحياناً إلى إنكار جميع الأشياء، ونفي حقائقها، مثل طائفة السوفسطائية، في العلوم الشرعيّة.

وعلاجها بعد التأمل في قبحها، ومعرفة أن هذه الصفة المهلكة تؤدي

إلى الحرمان من العلم والعمل والفيوض الكثيرة، هو الرجوع إلى استدلالات ومعتقدات العلماء والمشهورين باستقامة السليقة؛ وليعلم بعد أن يجد جمعاً كثيراً من العلماء الأعلام ذوي السليقة السليمة، وأصحاب الأفهام المستقيمة على هذه الطريقة، وهو وحده يشكّك بها ـ أن ذلك لا محالة من اعوجاج سليقته. فليلزم نفسه بالتكلف على طريقتهم، حتى يعتاد على الثبات والاطمئنان.

الثاني: الجهل البسيط:

وهو عبارة عن خلو النفس عن العلوم، والمعرفة بجهلها. هذه الصفة ليست مذمومة في البداية، ولكن البقاء عليها من الرذائل، ودفعها لازم. والمعين على دفعها هو التأمل في قبح الجهل، وحكم العقل بأن الجاهل في الحقيقة ليس إنساناً، بل هو في الواقع شبيه بالإنسان في الصورة، ومساوٍ للبهائم.

وضد هذين الجنسين الذي هو حد الاعتدال، الحكمة التي هي عبارة عن العلم بحقائق الأشياء. وهي أشرف النعوت الجمالية، وأفضل الأوصاف الكمالية، وإثبات فضيلتها غني عن البيان.

المبحث الثاني:

في بيان الرذائل الناشئة من الجنسين المذكورين (الجربزة، والجهل البسيط)، التي هي من متعلقات القوة العاقلة، وهي خمس صفات:

١ ـ الصفة الأولى: الجهل المركب:

وهو عبارة عن كون الشخص لا يعلم شيئاً، ولا يعلم أنه لا يعلم. وهو من أسوأ الرذائل، ودفعه في غاية الصعوبة، وسببه اعوجاج السليقة والذهن. وكيفية معرفته هي أن يعرض المرء بعض آرائه واستدلالاته على جمع من الناصحين، والمعروفين باستقامة الذهن والسليقة. فإذا صوبوها

كان بريئاً من هذا المرض، وإذا خطّأوه كان مبتلياً به. وأفضل معالجاته قراءة العلوم الرياضية من الهندسة والحساب، الموجهة لاستقامة الذهن وسلوك طريق الصواب.

٢ ـ الصفة الثانية: الشك والحيرة:

وهي عجز النفس عن تحقيق الحق وردّ الباطل في المباحث، ومنشؤها غالباً تعارض الأدلة. وعلاجها التأمل في أدلة استحالة اجتماع وارتفاع النقيضين، فأحد الفروض المتصورة حقّ إلبتّة، والباقي باطل. فليسعَ وليجتهد ويستقصي الأدلة المتناسبة مع المطلوب استقصاءً تاماً، حتى يجزم بحقيقة أحد الطرفين. والمواظبة على الطاعات والعبادات وقراءة القرآن، ومصابحة أهل الورع والصلحاء من أهل الإيمان؛ والتضرّع والمناجاة لله الرحمن ـ هي أقوى معين على دفع الشكوك وتحصيل الإيقان، وبالأخص لمن ليس قادراً على فهم الأدلة أو تحصيلها.

ومقابل صفتي الرذيلة هاتين أي (الجهل المركب والشك) اليقين، وأقل مراتبه الاعتقاد الثابت الجازم المطابق للواقع. ومرتبة اليقين هي أشرف المراتب وأفضل الفضائل وفي الحديث النبوي أن: «**اليقين الإيمان كله**»[١] وروي عن الصادق عليه السلام قوله: «... **واعلم أن العمل الدائم القليل على اليقين، أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين**...»[٢].

ولصاحب اليقين علامات:

الأولى: أنه لا يلتفت في أموره لغير الله، ولا يطلب مقاصده من غيره، ولا يرى نفسه أو الآخرين مشئاً للأثر في أي أمر. بل يعلم أن جميع الأمور مستندة إلى ذاته المقدسة، وجميع الأحوال منسوبة إليه، ويعلم أن ما

---

(١) جامع السعادات، ج١، ص١١٩، صحيح البخاري، ج١، ص٩، وقال ابن مسعود.
(٢) بحار، ج٧٠، ص١٧٣، الكافي، ج٨، ص٢٤٤.

هو مقدر سيصل إليه. في هذه الحال لن يكون هناك فرق في نظره بين الفقر والثروة، والمرض والصحة، والذلة والعزة وأمثالها. لأنه في هذه الأحوال يغمض عينه عن الوسائط، ويرى أن الجميع يصدر من مصدر واحد، وهو الحكيم المطلق، والخير المطلق.

الثانية: أن يكون في جميع الأوقات والحالات في نهاية الذلة والمسكنة والإنكسار في خدمة الرب، مشغولاً بذلك ليل نهار. ويرى نفسه حاضراً دائماً في مقام شهود حضرة الحق، وأنه ناظر على جميع أفعاله وأعماله.

الثالثة: أن يكون مستجاب الدعوات، بل صاحب كرامات، لأنه بقدر ما يزداد يقين الإنسان، يغلب الجانب التجردي فيه، لهذا السبب تحصل لديه قوة التصرف في جميع مواد الكائنات، التي هي من شأن المجردات.

ولليقين ثلاث مراتب: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، وتفصيل هذه المراتب لا يسعه هذا المختصر[1].

٣ ـ الصفة الثالثة: الشرك:

وهي أن يرى الإنسان منشأً آخر للأثر غير الله، فإذا عبد الله بهذه العقيدة سميت شركاً جلياً، وشركاً في العبادة. وإذا أطاعه في شيء ليس فيه رضاً لله، سمي ذلك شركاً خفياً، وشركاً في الطاعة. ولا شبهة في أن

---

(١) يقول العلامة المجلسي قدس سره: ذكر بعض المحققين ثلاث درجات لليقين.

أ ـ علم اليقين: وهو علم يحصل عن طريق الدليل والبرهان، مثل العلم بوجود النار بسبب الأثر الذي هو الدخان.

ب ـ عين اليقين: وهو يطلق عندما يصل علم الإنسان إلى الشهود والمشاهدة، كمن يرى النار ويشاهدها بعد علمه بها.

ج ـ حق اليقين: وهو يطلق عندما يلمس المعلوم، كمن يرى النار ويتصف بصفاتها بعد علمه بها ورؤيتها. (بحار، ج٧٠، ص١٣٥) وهناك آراء أخرى (جامع السعادات، ج١، ص١٢٣).

الشرك الأعظم باعث للهلاك والخلود في العذاب الأليم. وضده التوحيد وله عدة أقسام:

الأول: التوحيد في الذات، ويعني تنزيه الله عن التركيبات الخارجية والعقلية، والاعتقاد بأن صفاته عين ذاته.

الثاني: التوحيد في وجوب الوجود، أي حصر واجب الوجود في الله سبحانه، ونفي الشريك عنه في صفاته الواجبة.

الثالث: التوحيد في التأثير والإيجاد، وعلامة الوصول إلى هذا القسم من التوحيد، هو أن يتوكل الإنسان على الله في جميع أموره، وأن يعهد بجميع أموره إليه. وأن يغمض عينيه عن جميع أموره، لأنه بعد أن اتضح له أن لا منشأ لأي أمر غير الله (عزَّ وجلَّ)، بل مبدأ كل موجود، وكل فعل كالخلق، والرزق، والغنى، والفقر، والمرض والصحة، والذلة، والعزة، والحياة والموت وغيرهما، هو الحق تعالى فقط. فلن يلتفت بعد ذلك في أي أمر إلى غيره، بل يكون خوفه من الله، وأمله به، واعتماده عليه.

٤ ـ الصفة الرابعة: الخواطر النفسانية، والوساوس الشيطانية:

اعلم أن الإنسان لا يخلو أبداً من الفكر والخيال، وهو دائماً محل خطور الخواطر، وورود التخيلات. والقلب كالعلامة التي ترمى إليها السهام من حولها، أو كالمرآة التي تمر بمحاذاتها صور غير محدودة. وبما أن لكل فكرة وخيال منشأ، فمنشأ التخيلات الرديئة هو الشيطان وباعث الخواطر المحمودة هو المَلَك.

والأفكار قسمان:

القسم الأول: الأفكار المحركة نحو العمل خيراً أم شراً.

القسم الثاني: الأفكار غير المحركة نحو العمل، بل هي خيال محض، وهذه أيضاً إمّا أفكار محمودة أو أفكار فاسدة.

ولكل واحد منها أنواع كثيرة، ويعلم من هذا التقسيم أن الخواطر النفسانية هي أربعة أقسام:

قسمان منها الأفكار المحركة نحو عمل الخير، والتخيلات المحمودة، وتسمى الإلهام الذي هو من فيض الملائكة الكرام. والقسمان الآخران ويسميان الوسوسة التي هي من آثار الشيطان.

إذن، كلمّا مال المرء إلى مقتضى شهوة أو غضب، يكون قد أعطى الفرصة لجنود الشيطان للدخول إلى قلبه، لتظهر الوساوس الشيطانية والآثار الرديئة فيه. وكلمّا وجه قلبه إلى ذكر الله، ومالت نفسه إلى الورع والتقوى، يكون قد سدّ مجاري الشيطان، وأدخل الملائكة إلى قلبه، فتظهر فيه فيوضاتهم من الإلهامات والتخيلات المحمودة. وهذان الجيشان في نزاع دائم، حتى يغلب أحدهما بمدّد ومعونة خارجية، فيسيطر على مملكة النفس. وفي هذه الحال يقفل الباب أمام الطرف الآخر، فلا يجد مجالاً للدخول إلاّ أحياناً أو بشكلٍ عابر، فيمر بغاية السرعة.

أخي العزيز، لا تطمئن للشيطان وجنوده، ولا تظن أن هناك قلباً بعيداً عن متناول يده، بل هو كالدم الجاري في البدن المستولي عليه، ومثل الهواء في الكأس. ومعلوم أنه لا يمكن إخلاء الكأس من الهواء، إلاّ إذا ملأ بشيء آخر. وعاء القلب أيضاً كذلك، فإذا شغلته بذكر الله والأفكار المحمودة، فمن الممكن أن يأمن العدو قليلاً، فإذا غفلت عن الله لحظة، فسيحضر الشيطان مع وسوسته، كما قال الحق تعالى:

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾[1].

تعريب شعر فارسي:

لا تـدع فـي الـقـلـب نـداً لـلإلـه

أطـرد الـشـيـطـان لـم يـدخـل سـواه

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣٦.

٥ ـ الصفة الخامسة: المكر والحيلة للوصول إلى الرغبات الشهوية والغضبية:

والمراد منها في هذا المقام هو البحث عن الطرق الخفية لإيذاء الناس، واستعمال اللبس والغش والغدر والخيانة. وللمكر أقسام غير محدودة، وهو من المهلكات العظيمة، وأعلى صفات الشياطين وأكبر جنوده، ومعصيته أعظم من معصية الأذى في العلانية، لهذا السبب قال رسول الله ﷺ:

«ليس منا من ماكر مسلماً»[١].

وعلاجه تذكر سوء عاقبة المكر، والتأمل في أن صاحبه سيكون جليس الشيطان في نار السعير، ولقد ثبت بالتجربة أن من حفر بئراً لأخيه وقع فيها.

(١) أصول الكافي، ج٢، ص٣٣٧.

المقام الثالث

في بيان الصفات الرذيلة والأخلاق الحميدة المتعلقة بالقوة الغضبية:

لقد علمت أن جنس جميع الرذائل المتعلقة بهذه القوة منشؤه صفتان خبيثتان، إحداهما التهور، والأخرى الجبن وكل منهما متضمنة لصفات عديدة.

أما التهور الذي هو طرف إفراط الشجاعة، فهو عبارة عن رمي الإنسان نفسه في المهالك الممنوعة عقلاً وشرعاً. ولا شك أن هذه الصفة من المهلكات الدنيوية والأخروية، وقد نهى الحق تعالى عنها صريحاً، قال تعالى:

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

والحق أن صاحب هذه الصفة ليس خالياً من شائبة الجنون، وإذا لم يحترز عن مظان الهلاك وهلك، يكون بحكم الشريعة قد تسبب بقتل نفسه، وأوقعها في الهلاك الأبدي.

إذن يجب على كل مبتلىً بهذا المرض أن ينظر في مفاسده، ثم

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

يعرض كل عمل يقوم به على العقل والشرع. فإذا جوّزاه فعله، وإلاّ اجتنبه.

وأمّا الجبن الذي يقع في جانب التفريط، فهو أن يحترز المرء عمّا لا يجب أن يحترز عنه. هذه الصفة هي غاية في السوء وموجبة للهلاك، يكون الإنسان بسببها ذليلاً حقيراً، وتكون حياته مريرة أليمة. في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله ومثله عن الإمام الصادق عليه السلام.

«... **ولا يكون المؤمن جباناً ولا حريصاً ولا شحيحاً**»[1].

سوف نبيّن طريقة معالجة هذه الصفة عند بيان صفة الخوف التي هي من لوازم الجبن.

الحدّ الوسط لجنسي الرذيلة هذين هو الشجاعة، التي هي عبارة عن إطاعة القوة الغضبية للقوة العاقلة. هذه الصفة هي من أشرف الصفات الكمالية، والخالي منها يكون في عداد النساء لهذا السبب يقول الحقّ تعالى في وصف صالحي أحبائه:

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾[2].

وأما أنواع الصفات الرذيلة المتعلقة بالقوة الغضبية فهي كثيرة:

١ ـ الصفة الأولى: الخوف:

وهو عبارة عن التألم بسبب توقع حصول مكروه محتمل الوقوع، أمّا المكروه المظنون الحصول أو المستيقن، وإنّ كان لا يسمى خوفاً ولكن بمّا أنه من ضعف النفس، ومن موجبات الهلاك، فهو يذكر ضمن الخوف المذكّور. والفرق بين الخوف والجبّن، أن الألم وحرقة القلب ليسا ضروريّان في الجبن بخلاف الخوف.

---

(١) إحياء العلوم للغزالي، ج٣، ص٢٥٤، بحار الأنوار، ج٦٧، ص٣٦٤.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

والخوف قسمان:

الأول ممّدوح: وهو الخوف من الله وعظمته، ومن المعاصي، وهذا القسم من الخوف مذكّور في الصفة الثانية.

والثاني مذموم: وهو نتيجة الجبن، ويجب أن يعلم أن هذا القسم من الخوف على أنواع مذمومة جميعاً وهي:

الأول: الخوف من أمرٍ لا بدّ من وقوعه، ولا يمكن دفعه، ولا شكّ أن الخوف من أمر كهذا سببه الجهل، ولا فائدة فيه غير الألم العاجل. فيجب على العاقل أن يبعد هذا الخوف عن نفسه، وأن يكون راضياً بالقضاء الإلهي والمقدرات الربانية ليكون مطمئناً.

الثاني: الخوف من أمرٍ محتمل، وهو أيضاً مذموم كسابقه، بل هو أسوأ.

الثالث: الخوف من أمرٍ سببه بيده، ولكن السبب لم يوجد بعد، ويخاف من أن يصدر منه أمر ما ويترتب عليه أثر خاص.

وعلاجه مراقبة النفس حتى لا يصدر منه ذاك الأمر.

الرابع: الخوف من الأمور التي يستوحش منها الطبع بلا سبب، ومن دون جهة، مثل الجن والميت، خصوصاً في الليل وحال الوحدة. ومنشأ هذه الخوف هو غلبة القوة الواهمة، وقصور العقل، ونهاية ضعف النفس.

وعلاجه أن يتأمل قليلاً في الجهة التي تجعل هذه الأمور باعثة للخوف. أنت لا تخاف من الحي مع وجود القوة والقدرة لديه، فكيف تخاف من جسدٍ بلا حس ولا حركة؟ ومتى رأيت أو سمعت ميتاً هجم على الحي وصرعه؟ والجن الذي يوجد خلاف في وجوده[1]، بأي دليل تيقنت من وجوده؟ وإذا كان موجوداً فلماذا يقف أمامك ويظهر نفسه لك؟ وإذا فعل

---

(١) لا يشك أحد من المليين الإلهيين في وجود الجن، وآيات القرآن صريحة في أن الجن موجود، وهو مكلّف بالتكاليف الإلهية كالإنسان. لذا لم يذكر هذا الشك في معراج =

أيضاً، فلماذا يعمل على أذيتك؟ وإذا أقدم على ذلك فبأي قوة يغلبك؟ أليس الإنسان أشرف الكائنات، وأكثرهم مطيع له؟ ولأي جهةٍ يخاف أشرف الكائنات من وجود ضعيف القوة، مع وجود جميع هذه الاحتمالات؟ فيجب على صاحب هذه الصفة أن يصبر على المكوث في الليالي المظلمة وحيداً في الأماكن الموحشة، حتى يزول منه هذا الخوف تدريجياً.

والخوف من الموت هو أيضاً من هذا النوع والنوع الأول، وسببه عدة أشياء:

الأول: أن يظن أن الموت نقص يصل إليه، وتنزّل يحصل له. وليس هذا إلاّ من جهة الجهل بالحقيقة الإنسانية والموت، لأن كل من يعرف حقيقتها يعلم أن الموت سبب لكمال مرتبة الإنسان، وأن الإنسان ما لم يمت يكون ناقصاً وغير تام، وأن الإنسان الكامل دائماً يطلب الموت، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«... والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه...»[1].

تعريف شعر فارسي:

أتوق لترك منزلةٍ خراب	وأطلب رَوْحَ روحي في ذهابي
أصير كذرةٍ رقصت بشوقٍ	أطير لأرتقي شمس الغياب
يتوق هوى الفؤاد لترك سجني	إلى ملك الملوك غدا إيابي

= السعادة. وقد يكون مقصود المؤلف خلاف غير الموحدين والمليين فقد نسب المرحوم صدر المتألهين الخلاف في وجود الجن والشياطين إلى بعض الناس، ويستفاد من الدليل الذي ذكره على إنكارهم أنهم الماديون، ويقول هو نفسه أعلم أن الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة تدلان على وجود الجن والشياطين.

شرح أصول الكافي، ص٥٤٢. طبع طهران.

(١) نهج البلاغة ابن أبي الحديد، ج١، ص٢١٣.

الثاني: صعوبة قطع العلاقة بالدنيا والأموال، وهذا ليس خوفاً من الموت، بل هو خوف مفارقة بعض الزخارف الفانية.

وعلاجه: قطع العلاقة بها.

الثالث: الخوف من شماتة الأعداء، وتصور فرحهم، ولا شك أن هذا من وسوسة الشيطان، لأن شماتتهم وفرحهم لا يضرّان بالدين ولا بالإيمان، ولا يؤلمان البدن ولا الروح يؤلمان.

تعريف شعر فارسي:

كـن صـالـحـاً لـو ذمَّ فـيـك الـعـالـمُ

تـبـقـى مـع الإطـراء أنـت الآثِـم

الرابع: خوف ضياع الأهل والعيال والذل والضعف. هذا الوهم أيضاً من الوساوس الشيطانية؛ لأن صاحبه يرى نفسه منشأً للآثار، ويظن أن له مدخلية في عزة وثروة وقوة الآخرين. في الحال أنه من المعلوم بالتجربة الصادقة، أن أغلب اليتامى الذين فقدوا آباءهم في طفولتهم، كان رقيهم في أمور الدنيا والآخرة أكثر من الأطفال الذين تربوا في أحضان آبائهم. وأن من كان مطمئن البال بسبب ماله المدّخر، كانت عاقبة أولاده أن ابتلوا بالفقر والعوز والذل والهوان. فيجب على العاقل أن يختار الخير لأهله وعياله، وأن يوكل أمورهم لخالقهم، فإنه نعم المولى ونعم النصير.

الخامس: الخوف من العذاب الإلهي بسبب المعاصي، وهذا القسم من الخوف ممدوح، ولكن البقاء عليه وعدم معالجته بالتوبة والإنابة، هو من الجهل والغفلة.

يعلم بعدما ذكرناه، أن الخوف من الموت بسبب إحدى الجهات المذكّورة لا دليل له، فيجب على العاقل أن لا يجعل له طريقاً إلى نفسه، وأن يتأمل في الموت فهو شربة عليلة، الحياة الدائمة وتمني البقاء الأبدي للبدن أمر خيالي ومحال. بل يجب أن يتيقن أن كل ما يحدث في نظام

العالم خير وصلاح، فيرضي نفسه ويسعدها بكل ما يحدث، ولا يفسح المجال إلى نفسه للألم والمنغصات، وأن يكون مشغولاً في كل حال بالرياضات والمجاهدات. وأن يعمل على إزالة الصفات السيئة من نفسه ومن جملتها طول الأمل، وأن يرضى بالعمر المقدر له.

٢ ـ الصفة الثانية: الأمن من مكر الله:

ويعني عدم خوف الإنسان من العذاب والامتحان الإلهي، وعدم التفكر في عظمة وجلال ذيّ الجلال.

والسبب هو إمّا الغفلة عن عظمة الرب، أو عدم الاعتقاد بيوم الجزاء، أو الاطمئنان إلى سعة رحمة الله، أو الاعتماد على طاعاته وعباداته. هذه الصفة من أي منها نشأت فهي من المهلكات وموجبات الخسران؛ لأن الباعث عليها إمّا الجهل، أو الكفر، أو الغرور، أو العجب. وكل منها طريق يوصل الإنسان إلى الهلاك، والآيات والأخبار في هذه الصفة كثيرة. يقول الحق تعالى:

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[1].

وقد وردت أخبار كثيرة في أن الملائكة والأنبياء عليهم السلام يخافون المكر الإلهي[2].

ضد هذه الصفة المذمومة الخوف من الله، وهو على ثلاثة أنواع:

الخوف من عظمة وجلال الله المتعال، والخوف من المعاصي والتقصير، والخوف من كليهما معاً. لا شبهة في أنه بقدر ما تزداد معرفة العبد بعظمة وجلال ربه، وبقدر ما يكون عارفاً بعيوبه، يزداد خوفه من الله أكثر. ومن هذه الجهة نسب الحق تعالى الخوف إلى العلماء في قوله سبحانه:

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.

(٢) جامع السعادات، ج١، ص٢٥٣.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «أنا أخوفكم لله»[2].

وإن لم ترَ خوف الأنبياء والمقربين، فقد سمعت حكاياته وحالات الإغماء المتتالية لأمير المؤمنين عليه السلام. وسببها كمال معرفتهم بالله (عزَّ وجلَّ)؛ لأن المعرفة الكاملة تؤثر في القلب، فتلهبه وتجعله يضطرب، فيسري أثرها من القلب إلى البدن، فتجعل البدن ضعيفاً ونحيفاً، والوجه مصفرّاً والعين باكية.

ولا يخفى أن الخوف يكون ممدوحاً عندما لا يتجاوز عن حدّه المطلوب، وإلاّ كان مذموماً. وكثيراً ما ينجر إلى اليأس والقنوط من رحمة الله، وهذا هو حدّ الضلال والكفر. ولقد قال العلماء، إن الخوف من الله بمنزلة السوط الذي يسوق العباد إلى المواظبة على العلم والعمل، والطاعة والعبادة. وكالسوط الذي يؤدب به الأطفال، الذي يكون قليله بلا ثمر وكثيره مهلك. ويجب أن يعلم أن تحصيل صفة الخوف يتمّ بأربعة طرق:

الأول: السعي في تحصل اليقين والإيمان بالله ويوم الجزاء، والجنة والنار والعقاب والحساب.

الثاني: أن يتفكر دائماً بأهوال يوم الحساب، ويتذكّر أنواع العذاب، ويضع الموت نصب عينيه، ويتصور صعوبة عالم القبر والبرزخ وعقاب يوم القيامة.

الثالث: مشاهدة أحوال الخائفين من الله، والاستماع إلى قصص خوف الأنبياء والأولياء الشديد من الله (عزَّ وجلَّ).

الرابع: أن يتأمل في عدم قدرة البشر على فهم حقائق القضاء والقدر

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٢) جامع السعادات، ص٢٥٣، وفي جامع الأخبار، ص١١٣: «من كان بالله عارفاً كان من الله أخوف» بحار، ج٧٠، ص٧٧.

الإلهي وعدم أحدٍ بما هو وراء الحجاب، فالفرح بالطاعة والإيمان خاتمة أمره؟ وماذا يعرف عن نهاية عمله؟ وكيف يطمئن إلى أن ما كتابه لن يتحول؟ وأن أحواله لن تتبدل؟ كما ورد أن شخصاً عبد الله خمسين عاماً، وعمل عمل أهل الجنة، حتى لم يبق بينه وبين الجنة إلاّ بقدر شرب الناقة، وصارت خاتمتع إلى ما قدّر له[1].

تعريف شعر فارسي:

لا تـرضَ بـالأعـمـالِ فـي يـومِ الأزل

لا تـدرِ مـا تـلـقـاه مـن سـوءِ الـعـمـل

وروي أيضاً أن الملائكة إذا صعدت بروح المؤمن وقد مات على الخير والإسلام تعجبت وقالت: «كيف نجا من دنيا قد فسد فيها خيارنا»[2].

وورد أيضاً: «**الناس كلهم هلكى إلاّ العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلاّ العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلاّ المخلصون، والمخلصون على خطرٍ عظيم**»[3].

فيجب أن نبكي على أنفسنا، وننوح على أحوالنا.

تعريب شعر فارسي:

إذا نـظـرت لـغـيـرك ذي الـعـيـونُ　　بـكـت بـدمـاء مـقـلـتـهـا الـجـفـون

وأجـلـس حـيـثـمـا بـكـت الـجـمـوع　　ألـيـق بـالألـمِ الـحـزيـن

وهذا الخوف الذي هو خوف سوء العاقبة، هو أعظم المخاوف التي

---

(١) جامع السعادات، ج١، ص٢٧٤.

(٢) جامع السعادات، ج١، ص٢٧٤.

(٣) بحار، ج٧٠، ص٣٤٥، جامع السعادات، ص٢٧٤، إحياء علوم الدين، ج٤، ص١٧٩. المحجة البيضاء، ج٤، ص١٨٠.

مزقت قلوب العارفين. ولسوء العاقبة أسباب كثيرة، ومرجعها إلى ثلاثة أشياء:

الأول: وهو أسوأها وهو أن يظهر عند سكرات الموت، خلل بعقائد الميت، ويوجد الشك أو إنكار بعض العقائد في قلبه، فيصير هذا حجاباً بينه وبين الله، ويؤدي به إلى العذاب الأبدي، والخسران الدائم.

الثاني: قلّة حب الله في القلب، وغلبة حب الدنيا والأهل والعيال على حب الله. فعندما يشاهد هذا الشخص الموت، ويستحضر في ذهنه مفارقته للأشياء المحبوبة لديه؛ ولأنه يعلم أن هذا الفعل من الله، يزول القليل الباقي من الحب، بل يتبدل إلى بغض وإنكار.

فإذا مات على هذه الحال، كان ذلك من سوء العاقبة. ويرِد على الحق تعالى كالعبد الآبق الساخط المأخوذ قهراً، فيحملونه إلى مولاه.

إذن على كل طالب نجاة أن يجعل حب الله غالباً على قلبه.

الثالث: كثرة المعاصي وأتّباع الشهوات، والرسوخ فيها. فهي تخطر في ذهن الإنسان عند الموت، وتتصور لديه. فإذا مات على هذه الحال كانت عاداته وشهواته حجاباً بينه وبين ربه. وكثيراً ما تتمثل له صورته الفاحشة بسبب الإلفة والعادة. والسر في ذلك أن حالة الغيبوبة التي تحصل قبل الموت شبيهة بالنوم، فكما يرى الإنسان الأحوال التي ألفها واعتاد عليها حال النوم، ولا يرى فيه أبداً الأشياء التي لا تشبه ما رآه حال اليقظة واعتاد عليه. كذلك عند سكرات الموت، والغيبوبة التي تسبقه والتي هي بمنزلة النوم، لا يخطر بباله غير ما اعتاد عليه وألفه. ومن أراد الخلاص من هذا الخوف يجب عليه أن يشتغل بالمجاهدة تمام عمره، ليمنع النفس عن المعاصي، وينزع جذور الشهوات من قلبه، ويواظب على العلم والعمل.

٣ ـ الصفة الثالثة: اليأس من رحمة الله:

هذه الصفة من جملة المهلكات، ومن المعاصي الكبيرة، بل يفهم من

بعض الآيات أنها موجبة للكفر[1]. ويكفي في خبثها أنها تمنع الإنسان من محبة الله، وعن الطاعات والعبادات.

وعلاجها بتحصيل ضدها، وضدها الرجاء، أي الأمل بالله الذي هو عبارة عن انبساط القلب وسروره لانتظار أمر محبوب. بشرط أن يكون الإنسان قد حصّل أسباب الوصول إليه، مثل انتظار بلوغ القمح من قِبَل من زرع حبّاً سالماً من العيب، في أرض صالحةٍ يصل إليها الماء، وسقاها في وقتها. أمّا توقع الشيء الذي لم يهيأ أي من أسبابه، فلا يسمى رجاءً، بل يسمى غروراً وحماقة. مثل انتظار القمح ممَّن لم يزرع الحب، أو زرعه في أرض سبخة[2] بدون ماء. ومعلوم أن انتظار هذا الشخص للقمح ليس إلاّ غروراً وحمقاً.

إذا علمت ذلك فاعرف أن الدنيا مزرعة الآخرة، وقلب الإنسان بمنزلة الأرض، والإيمان هو الحب، والطاعات هي الماء الذي يجب أن تروى به الأرض. وتطهير القلب من المعاصي والأخلاق الذميمة بمكانة تنظيف الأرض من الشوك والحشائش، ويوم القيامة هو زمن الحصاد. فمن قام بهذا النحو من الزراعة، وأمل بعد ذلك كان رجاؤه صادقاً، وإلاّ لم يكن ذلك إلاّ الغرور والحمق.

قال أحد فصحاء العرب: ما اشترى العسل من اختار الكسل. وحاصل معناه:

تعريب شعر فارسي:

لا ينال الفوز من دون اجتهاد

من سعى للخيرِ يؤجرْ في المعادِ

---

(1) ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ سورة يوسف، الآية: ٨٧.

(٢) مالحة.

ولهذا ورد أن محمد بن رفعة قال للإمام الصادق عليه السلام:

«إن قوماً من مواليك يلمون بالمعاصي ويقولون نرجو فقال: كذبوا ليسوا لنا بموال. أولئك القوم ترجحت بهم الأماني، من رجا شيئاً عمل له، ومن خاف من شيءٍ هرب منه»[1].

واعلم أن الآيات والأخبار الواردة في باب الرجاء والأمل كثيرة، ولو لم يكن في هذا الباب إلاّ سعة رحمة الحق تعالى وكثرة إحسانه، وشفاعة الرسول وأهل بيته الأطهار عليهم السلام، والبشارات والأجر الذي ورد للشيعة لكان كافياً. فقد ورد أن الله يوم المحشر يغفر ويعفو بقدر لا يخطر على بال أحد، حتى يطمع الشيطان بذلك[2]. وروي أيضاً أنه لو لم يعص العباد لخلق الله خلقاً آخر ليعصوا حتى يعفو عنهم[3].

تعريب شعر فارسي:

قد فاق عفو الله عن أخطائنا   الأمر سرٌّ ليس أمراً معلناً

أخبرت آمالي إلى ريح السحر

جاء الندا أن ثق بألطاف السنا

٤ ـ الصفة الرابعة: ضعف النفس:

وعلامتها العجز والاضطراب عند حدوث الحادثة ونزول البلية. وهذه الصفة الخبيثة تظهر صاحبها ضعيفاً ووضيعاً، ولازم ذلك المذلة والمهانة وتجنب الأعمال الكبيرة والجليلة والأمور العالية. والتسامح في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاضطراب لأقل شيء من البلايا والمخاوف.

---

(١) أصول الكافي، ج٢، ص٦٨ ج٦.

(٢) جامع السعادات، ج١، ص٢٥١. ليس المقصود من الرواية الأخيرة الترغيب بالمعصية فهذا مناف لإنذار الأنبياء، وأدلة النهي عن المنكر، بل المقصود بيان سعة وشمول العفو الإلهي، حتى لا ييأس من ابتلي بالمعصية ويرجو المغفرة والرحمة الإلهية مهما كانت معصية كبيرة.

(٣) المصدر نفسه.

وضدها عظم النفس وقوة القلب، وعلامته تحمل الإنسان ما يزد عليه. وعدم كونه كالعشب الضعيف الذي يتزلزل مع كل ريح، وكالفأرة والثعلب يهرب يميناً ويساراً عند أي حركة، بل يكون قوياً وثابتاً في مكانه كالجبل. وطريق تحصيل هذه الصفة يعلم ممّا مر في دفع الخوف المذموم.

٥ ـ الصفة الخامسة: دناءة الهمة:

التي هي عبارة عن حقارة الطبع، وقصور الهمّة عن طلب الأعمال العظيمة، وقناعة النفس بالأفعال الحقيرة، والأعمال الجزئية وهذه الصفة الخبيثة هي نتيجة لضعف القلب والنفس.

وضدها علو الهمّة التي هي السعي في تحصيل المراتب العالية، والأعمال العظيمة. وصاحب الهمّة العالية لا يحني رأسه للأمور الجزئية، ولا يلوّث نفسه بالطمع بالمنافع الدنيوية الخسيسة.

تعريب شعر فارسي:

غلام الهمّة أنا الذي تحت السماء الزرقاء

حرّ من كل ما فيه لون التعلق

وهذه الصفة هي نتيجة عظم الذات وشجاعة النفس، وأعلى الفضائل النفسانية، لأن كل من وصل إلى مرتبة ما، وارتفع إلى المراتب الفاضلة فبهذه الصفة.

٦ ـ الصفة السادسة: عدم الغيرة وعدم الحميّة:

وهي التقصير والإهمال في المحافظة على ما يجب حفظه من الدين، والعرض والأموال والأولاد. هذا المرض غالباً ما يجعل الإنسان ديوثاً، وفي الحديث أن قلب الرجل غير الغيور منكوس[١].

---

(١) جامع السعادات، ج١، ص٢٦٥.

وضدها الغيرة والحميّة اللتين همّا نتيجة الشجاعة وقوّة النفس، ومن أشرف الملكات. وفاقد هذه الصفة خارج عن زمرة الرجال، بل لا يليق باسم الرجل. روي عن الإمام الصادق عليه السلام **«إن الله غيور يحب كل غيور»**[1].

إذن يجب على الشخص الغيور أن يسعى لردّ بدعة المبتدعين. ومن يهين الدين المبين، وأن يردّ شبهة المنكرين. وأن يجدّ ويجتهد في ترويج أحكام الدين، وأن لا يتسامح في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يحافظ على أهله وحرمه ولا يهملهم. وأن يسعى بقدر ما يستطيع على أن لا ترين الرجال ولا يراهنَّ الرجال[2]، ويمنعهن عن ما يحتمل فيه فسادهن، مثل استماع الموسيقى والغناء، والخروج من المنزل، والذهاب والإياب مع الأجانب، والذهاب إلى الحمامات والمساجد والأعراس وسائر المحافل والمجالس[3]. وأن يمنعهن أيضاً من سماع القصص المثيرة للشهوة.

ولكن من المعلوم أن صفة الغيرة وإن كانت مستحسنة، إلاّ أنه يجب أن لا تصل إلى حدّ الإفراط، ولا يظن المرء بأهله بدون سبب، ولا يضيّق عليهم، ولا يعمل على التجسس عليهم لمعرفة باطنهم، لأنه كما ورد في الحديث:

«وإن المرأة كالضلع إن أردّت أن تقيّمه كسرته فدّعه تستمع به على عوج»[4].

وبالجملة المبالغة في تفحص أحوالهن ليست راجحة، لأنّها تؤدي إلى سوء الظن وهو مذموم شرعاً.

٧ ـ الصفة السابعة: العجلة والتسرع في الأفعال والأقوال:

بأن يقدم المرء على أمر بمجرد خطوره في ذهنه، بدون أن يلاحظ جوانبه، وهذه الصفة من ضعف النفس، ومن طرق الشيطان الكبيرة.

---

(١) جامع السعادات، ج١، ص٢٦٥.
(٢) بحار، ج١٠٣، ص٢٣٨.
(٣) بحار، ج١٠٣، ص٢٢٨، ٢٦٩.
(٤) جامع السعادات، ج١، ص٢٩٩.

في الحديث عن النبي ﷺ : **«العجلة من الشيطان والتأني من الله»**[1].

لقد ثبت بالتجربة مراراً أن كل أمرٍ يصدر من الإنسان بدون تأمل[2] يؤدي إلى الخسران والضرر، ويندم صاحبه. وأنه ينظر إلى العجول نظر الاستحقار، ولا يكون له وقع واعتبار في القلوب.

وضد صفة العجلة الوقار، الذي هو اطمئنان النفس وسكونها في القول والعمل والحركات والسكنات، قبل البدء بأحدها، وهو نتيجة قوة النفس، ومن فضائل الصفات. بل تندر في الأخلاق الحسنة الصفات التي تصل إلى شرف هذه الصفة، التي يمدح أصفياء الله (تعالى) بها، كما جاء في سيد الرسل ﷺ :

«صاحب الوقار والسكينة».

ظاهر أنه لا يوجد صفة إنسانية في نظر الناس تجعل المرء عزيزاً وشريفاً مثل هذه الصفة. فمن اللائق بالمؤمن أن يبقي شرف وحسن هذه الصفة بشكل متواصل مورداً لاهتمامه، ويلزم نفسه بها في الأفعال والأقوال لتصير ملكة له. إن الأعمال تحصل بالصبر والتأمل، وبالعجلة تحصل معكوسة.

٨ ـ الصفة الثامنة: سوء الظن:

أي سوء الظن بالله وبالخلق، وهذه الصفة هي نتيجة الجبن وضعف النفس، لأن الجبان وضعيف النفس يصدق كل فكرة فاسدة تمر بخاطره، وتأتي على قوته الوهميّة، ويتبعها.

هذه الصفة هي من الهلكات العظيمة، والآيات والأخبار تشهد على خباثتها، فقد نقل عن الإمام الصادق عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام :

---

(١) جامع السعادات، ج١، ص٢٧٤، بحار الأنوار، ج٧١، ص٢٤٠ باختلاف قليل.

(٢) جامع السعادات، ج١، ص٢٧٤، بحار الأنوار، ج٧١، ص٢٤٠ باختلاف قليل.

«وضع أمر أخيك على أحسنه ولا تطلبن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً»[1].

إذا كما رأيت عالماً في بيت ظالم، وألقى الشيطان في ظنك أنه ذهب إلى بيته طمعاً، فيجب عليك أن لا تعطيه طريقاً إلى قلبك، لأنه قد يكون سببه إعانة مظلوم. وإذا وجدت في فم مسلم رائحة خمر، فقل قد يكون تمضمض بها وألقاها، أو إذا شرب قد يكون مجبراً، أو لمعالجة مرض لطلب طبيب حاذق ونحو ذلك. وبالجملة يجب أن يكون حكمك على أفعال المسلمين بحكم الشهادة على أموالهم.

يعني كما أنك لا تحكم في المال إلاّ بمّا رأيت أو سمعت إقراره، أو شهد عندك عادلان، كذلك يجب أن تكون في أفعالهم، فلا تظنن سوءاً بحق أحد بدون هذه الأمور الثلاثة. بل إذا نقل لك عادلان سوءاً عن مسلم يجب عليك أن تتوقف، فلا تكذب العادل حتى لا تظن به الكذب، أو البهتان أو العداوة أو الحسد، ولا تصدق حتى لا تسيء الظن بالمسلم، مع احتمال أن يكون ذلك العادل قد سهى، أو اشتبه عليه الأمر.

ولكن لا يخفى أن مجرد خطور شيء في ذهنك مع الشك، بدون أن ترجحه وتجعله منشأ لأمر ما، فليس من سوء الظن ولا تؤاخذ عليه. ولا يخفى أن سوء الظن من موجبات الهلاك؛ لهذا نهى الشارع نهياً بالغاً عن التعرض لما يبعث على التهمّة وموجبات سوء ظن الآخرين به، ويؤدي إلى هلاكهم كما ورد:

«اتقوا مواضع التهم»[2].

اتقوا مواقف الريب»[3].

---

(١) تحف العقول، ص٣٨٧، ويقرب من هذا في الكافي، ج٢، ص٣٦٢.

(٢) الوسائل، ج٨، ص٤٢٣.

(٣) المحجة البيضاء، ج٣، ص٤٢.

«إياك ومواطن التهمّة»[1].

وطريقة معالجة سوء الظن، ـ بعد ملاحظة فساده، وشرف ضده الذي هو حسن الظن ـ، هي: أنه كلما خطر في ذهنك سوء ظن بأحد، فلا تعتنِ، ولا تحمل في قلبك سوءاً، ولا تقلل زيارتك وإكرامك واحترامك له. بل الأفضل أن تزيد في تعظيمه، وتدعو له في الخلوات، حتى تغيظ الشيطان، فيمتنع عن إلقاء سوء الظن في ذهنك، خوفاً من زيادة احترامك ودعائك له.

وضد سوء الظن حسن الظن، وفوائده كثيرة، وقد وردت أخبار كثيرة في فضيلته، وبالأخص في حسن الظن بالحق تعالى.

٩ ـ الصفة التاسعة: الغضب:

وهي حالة نفسانية تحرك الروح الحيوانية من الداخل إلى الخارج، من أجل الغلبة والانتقام. وكلما اشتدت أدّت إلى حدوث حركة شديدة فتحدث حرارة مفرطة، وينبعث منها دخان أسود يملأ الدماغ والشرايين، ويغطي نور العقل. لهذه الجهة لا تنفع صاحبه الموعظة والنصيحة، بل تزيده غلظة وشدّة. فإذا كان الانتقام ممكناً، يتحرك دم الغضب، ويميل من الباطن إلى الظاهر، فيحمرّ لونه. وإذا مال الدم إلى الباطن يصفر لونه.

والناس في القوّة الغضبية على ثلاثة أقسام:

بعضهم في طرف الإفراط، لا يبقى لديهم تفكير ولا وعي، ويخرجون عن طاعة العقل والشرع.

وطائفة في طرف التفريط، لا يملكون مطلقاً قوة غضبية، حتى عندما يكون الغضب لازماً عقلاً وشرعاً.

---

(١) المحجة البيضاء، ج٣، ص٤٢.

وطائفة مستقيمة على جادة الاعتدال، يكون غضبهم في محله ولا يتجاوزون حدّ الشرع والعقل. ولا شك أن حدّ الاعتدال مطلوب، ليس غضباً، بل هو شجاعة. كما أن الطرفين قبيحان ومذمومان. بل قد يكون طرف التفريط أقبح من الإفراط أحياناً[1]. لأن من لم يكن لديه أي قوة غضبية، كان بلا غيرة وخالياً من الحمية، بل قيل أن هذا الشخص هو حمار.

وأما الغضب المفرط، فهو من المهلكات العظيمة، وكثيراً ما يرمي الإنسان بنفسه بسبب أمر جزئي إلى الهلاك الأبدي، لهذا السبب قالوا: إنه جنون يعرض فجأة، وكثيراً ما توجب شدّة الغضب الموت فجأة، ففي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل»[2].

وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: **«الغضب مفتاح كل شر»**[3].

إضافة إلى ذلك، للغضب لوازم وآثار عديدة، جميعها من المهلكات والقبائح. لأن إظهار مساوىء المسلمين، والشماتة بهم، وكشف أسرارهم، وهتك أستارهم، والسخرية والاستهزاء بهم، أو سبّ الحيوانات والجمادات كما يحدث كثيراً، وكسر الكأس والإبريق، وتمزيق اللباس، وضرب الرأس والوجه، وغيرها من الأمور لا تصدر من العقلاء البتّة.

ومن لوازم الغضب، أن يندم ويحزن الإنسان بعد سكونه. وأنه يؤدي إلى عداوة الأصدقاء، وشماتة الأعداء وفرحهم، وسخرية واستهزاء الأراذل والأنذال، وتألم القلب، وتغير المزاج ومرض الجسم. والعجب من الذين يتوهمون أن شدّة الغضب هي من الرجولة، مع أن الأفعال التي تصدر عن

---

(١) معراج السعادة، ص١٦٥.
(٢) أصول الكافي، ج٢، ص٣٠٢.
(٣) أصول الكافي، ج٢، ص٣٠٢.

الغاضب هي أفعال أطفال ومجانين، وليست أفعال عقلاء ورجال! ففي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: **«ليس الشديد بالصرعة، إنمّا الشديد الذي يملك نفسه عن الغضب»**[1].

تعريب شعر فارسي:

نعم الفتى من كان مشهور الحسب
لا باطلاً يرضى وإن جنّ الغضب

إذا علمت مفاسد الغضب فاعلم أن علاجه موقوف على عدّة أشياء:

الأول: السعي لإزالة أسبابه التي أهمها: الفخر والكبر والعجب والغرور واللجاجة والاستهزاء، والحرص والعداوة، وحب الجاه والمال وأمثالها.

الثاني: ملاحظة الأخبار الواردة في ذمّ الغضب، ومدح الحلم، وفي ثواب حماية النفس من الغضب.

الثالث: حماية النفس من القول والفعل الذين هما منشأ الغضب.

الرابع: اجتناب مرافقة من تغلب عليهم القوة الغضبية، ولا يتصفون بالحلم.

تعريب شعر فارسي:

حتى متى تغتر يغشاك الغضب
الله موجود ليجزيك الأدب

الخامس: أن يتذكر أن هناك يوم يعطى هذا الضعيف قوة، أو تضعف كي ينتصر عليك وينتقم منك.

تعريب شعر فارسي:

---

(١) إحياء علوم الدين، المحجة البيضاء، ج٣، ص١١٩.

لا تـظـلـمِ الـيـوم الـفـقـيـر الـمـعـدمـا

تـأتـي غـداً كـالـذرِّ تـجـثـو مـرغـمـا

السادس: أن تعلم أن الحليم والصبور غالب ومنتصر، وهو عزيز ومحترم عند أولي البصائر بخلاف الغضوب:

تعريب شعر فارسي:

الـحـلـم أمـضـى مـن سـيـوف قـاطـعـة

بـل يـورث الأبـطـال نـصـراً لا دعِـة

السابع: أن تتصور قبح صورتك عند الغضب وتغيرها، وتحرك أعضائك، وخروج عملك عن النظم هو الطبيعي.

ومن جملة معالجات الغضب أن يستجير الإنسان بالله من شر الشيطان عند الغضب، وإذا كان واقفاً فليقعد، وإذا كان جالساً فلينم. والوضوء والغسل بالماء البارد يفيد في تسكين نار الغضب، وإذا كان الغضب على الرحم يضع يده على بدنه ليسكن غضبه.

وضد الغضب الحلم، الذي هو عبارة عن اطمئنان النفس بحيث لا تحركها القوة الغضبية بسهولة، ولا تزلزلها مكاره الدهر بسرعة. كظم الغيظ الذي هو عبارة عن إمساك الغضب عند حدوثه، وإن لم يكن حلماً لكنه أيضاً مضاد للغضب. فهاتان الصفتان الشريفتان مضادتان للغضب، وهما من الأخلاق الحسنة.

أما شرف العلم فمن المعلوم أن أغلب الأخبار في باب العلم، تجعل الحلم توأماً للعلم. وروي أن الخير والصلاح ليس هو كون مال شخص أو علمه كثيراً، بل هو كون عمله كثيراً وحلمه كبيراً.

ذكروا أن «أنوشيروان» سأل «بوزرجمهر» ما هو الحلم؟ قال: الحلم ملح مائدة الأخلاق، إذا قلبت حروفه يصير ملحاً، وكما أن لا طعم لطعامٍ بدون الملح، فلا جمال لخلق بدون حلم.

قال أنوشيروان: ما هي علامة الحليم؟

قال ثلاث علامات:

الأولى: إذا ذكره شخص حاد الطبع وفحّاش بسوء، أجابه جواباً جميلاً، وإذا آذاه بفعله، قام بإزاء ذلك بالإحسان إليه.

تعريب شعر فارسي:

إن تَسَل عن غاية الحلم الجميل اعف عن سَبٍّ وسامح مستقيل

كن ظليلاً مثمراً مثل النبات من رماها بالحصى خيراً تهيل

من نوى ظلماً وبالجور اعتدى أعطه تبراً من اللطف الجميل

الثانية: هو أن يكون حال اشتعال نار الغضب ووصول صولته وسطوته إلى غايتها ساكناً، وهذا دليل اطمئنان القلب وسكون الروح.

الثالثة: إمساك الغضب عن من هو مستحق للغضب في الواقع. وأما كظم الغيظ، فهو وإن كانت فضيلته بقدر الحلم، لكن كلما داوم عليه الشخص اعتاد عليه، ويحصل على صفة الحلم. ولقد ورد مدح هذه الصفة في الكتاب الإلهي وأحاديث الرسالة كثيراً، وروى أنه لا يتجرع عبدٌ جرعةً أكثر أجراً من جرعة غضب أمسك لأجل الله.

١٠ ـ الصفة العاشرة: الانتقام:

وهي أن يسعى الشخص إذا أساء إليه أحد، أن يردّ إليه الإساءة بمثل ما فعل معه أو أكثر منه، وإن كان محرماً. مثل ردّ الغيبة بالغيبة، والفحش بالفحش، والبهتان بالبهتان وغيرها من الأفعال المحرمة.

ولا شك في خبث هذه الصفة، ففي الحديث النبوي قال ﷺ: **«المستبّان شيطانان يتهاتران»**[١].

---

(١) جامع السعادات، ج١، ص٢٩٩.

فمن اللائق بالمؤمن إذا ظلمه أحد أن ينظر إن كان هناك انتقام مقرر له شرعاً، فليكتف به، ولا يتعداه. وإن كان الأفضل أن يعرض عنه ويعفو. وإن لم يعرف له جزاءً معيناً له شرعاً، فلا يتقدم خطوة خارج دائرة الشرع.

وضده العفو الذي هو من محاسن الأوصاف، والآيات والأخبار في حدّه لا تعدّ. قال الحق تعالى:

﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1].

وورد أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«عليكم بالعفو، فإن العفو لا يزيد العبد إلاّ عزاً فتعافوا يعزّكم الله»[2].

وقال الحكماء إن المعصية مهمّا كانت عظيمة ففضيلة العفو أعظم.

تعريب شعر فارسي:

جزاء المسيئين سهل المنال ... خذ العفو فضلاً وكن كالرجال

وكافٍ في فضيلة العفو أنه من أوصاف الرب، وأنهم يصفونه في مقام المدح والثناء بهذه الصفة الجميلة. يقول الإمام السجاد عليه السلام في الصحيفة السجادية المكرّمة في مدح الحق تعالى:

«أنت الذي سميت نفسك بالعفو فاعف...».

١١ ـ الصفة الحادية عشر: الغلظة في الفعل والقول: (العنف)

وهذه الصفة خبيثة باعثة لنفور الناس، وموجبة لاختلال أمر الحياة. ومن هذه الجهة قال تعالى في مقام الإرشاد لنبيه:

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

(٢) الكافي، ج٢، ص١٠٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

ويستفاد من بعض الأخبار أن الغلظة والطبع السيء مؤديان إلى سلب الإيمان والدخول في جنود الشيطان.

وضده الرفق واللين في الأقوال والأفعال، وهو زينة للإنسان، ومن أخلاق الصالحين، فقد قال رسول الله ﷺ: **«لو كان الرفق خلقاً يرى ما كان فيما خلق الله شيء أحسن منه»**[1].

وبالجملة، الرفق والمداراة صفتان جيدتان في جميع الأمور، ولا يخفى هذا الأمر على أي عاقل.

تعريب شعر فارسي:

باللسان العذب واللطف الجميل   قد تسوق الفيل بالشعر الهزيلِ

١٢ ـ الصفة الثانية عشر: سوء الخلق:

وظاهر أن الغلظة هي من ثمرات سوء الخلق، كما أن انقباض الوجه، وضيق القلب، وسوء الكلام أيضاً هي من نتائج القوة الغضبية، ومن جملة الصفات التي تبعد الإنسان عن الخالق والخلق، وتعله معذباً دائماً. وسيء الخلق أسير دائماً في يد عدو، لا يجد الخلاص من عذابه أينما ذهب.

تعريب شعر فارسي:

لو فرَّ عمراً من دنت أخلاقه   تبقى بآفات البلا آماقه

وورد عن النبي ﷺ:

إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم»[2].

وضده حسن الخلق الذي هو من شرائف الصفات، وليس في كفة ميزان الأعمال شيء أفضل من حسن الخلق. وهو يذيب الخطيئة كما تذيب

---

(١) جامع السعادات، ج١، ص٣٠٣.

(٢) إحياء علوم الدين، ج٣، ص٥٢. جامع السعادات، ج١، ص٣٤٢.

الشمس الجليد. بل أن حسن الخلق هو أفضل صفات الأنبياء، لذلك قال الحق تعالى لحبيبه في مقام المدح والثناء لإظهار نعمته:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

١٣ ـ الصفة الثالثة عشر: العداوة:

وهي على قسمين: لأنه من كان لديه عداوة مع شخص، فإمّا أن يخفيها في قلبه وينتظر الفرصة على مرّ الزّمن، أو أن يظهرها ويسعى بصدّد الإيذاء.

الأول: هو الحقد.

الثاني: هو العداوة.

وكلاهما من المهلكات، ومنشأ للأخلاق الرذيلة، مثل الحسد، والغيبة، والكذب، والبهتان، والشماتة، والجفاء، وإظهار العيب، والإيذاء، والسخرية، والاستهزاء، وأمثالها. من هذه الجهة ورد الذمّ الكثير للعداوة في الأخبار الكثيرة. في الحديث النبوي عن أبي عبد الله عليه السلام عن الرسول صلى الله عليه وآله:

«ما عهد إليّ جبرائيل في شيء ما عهد إليّ في معاداة الرجال»[2].

ومعالجة هذه الصفة الخبيثة هي التأمل في ثمراتها التي هي الغمّ والألم في الدنيا والآخرة. بل كما يعلم من كتب التواريخ والسير والأحوال الناس، أنه لم تَزُلْ دولة إلاّ بسبب العداوة. وبعد التأمل في هذا الأمر يسعى لأن يعامل الشخص الذي يعاديه برفق ويكلمه بشفقة. ويلاقيه برحمة وصبر، ويسعى في قضاء حوائجه، بل يحسن إليه أكثر من غيره، حتى تزول آثار العداوة من قلبه.

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

(٢) بحار الأنوار، ج٧٣، ص٤٠٩.

تعريب شعر فارسي:

ازرع بذور الحب تثمر راحة　　　واترك عداء الخلق تكفى ترحةً

وضده النصيحة التي هي عبارة عن الخير، وشرفه كبير وسيشار إليه في صفة الحسد، إن شاء الله تعالى.

اعلم أن من الآثار التي تترتب على العداوة والحقد الضرب والفحش واللعن والطعن، وكثيراً ما تصدر هذه الأمور عن مجرد الغضب أيضاً، ويعتاد الإنسان على الفحش بسبب مجالسة الأدنين، والفساق ذوي اللسان البذيء، والمعتادين على الفحش، فيجري على اللسان بدون عداوة وغضب. ولا شك في خبث هذه الأوصاف.

أما الضرب فهو حرام بدون جهة شرعية، ولم يجوّزه أحد. وأمّا الفحش والقول البذيء، فمنشؤهما خبث ودناءة النفس.

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله:

«إن الله حرم الجنة على كل فحاش بذيء قليل الحياء لا يبالي ما قال ولا ما قيل له، فإنك إن فتشته لم تجده إلا لغية أو شرك شيطان. فقيل يا رسول الله وفي الناس شرك شيطان، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله أما تقرأ قول الله عز وجل: «وشاركهم في الأموال والأولاد...»[1].

وروي أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام:

«من خاف الناس لسانه فهو في النار».

وقال: **«شر الناس يوم القيامة الذين يكرمون اتقاء شرهم»**.

فمن اللائق بالمؤمن أن يحفظ لسانه من الكلام البذيء والفحش[2].

---

(١) أصول الكافي، ج٢، ص٣٢٣. ولكن هذه الرواية ضعيفة بضعف إبان بن أبي عياش، ويحتمل في كلمة «لغيّة» ولد الزنا أو بمعنى ملغى، أو كونها «لعنة» من اللعن.

(٢) جامع السعادات، ج١، ص٣١٥، ويقرب منه ما في أصول الكافي، ج٢، ص٣٢٧.

وأن لا يتلفظ الألفاظ الركيكة المستهجنة لدى العرف بعبارات صريحة، كالألفاظ المتعلقة بالنساء، والبول، والغائط، وبعض العيوب[1].

وأمّا اللعن فهو أيضاً من الخبائث. ويستفاد من بعض الأخبار أن اللعن لمن لا يستحقه يرجع إلى اللاعن[2]. فيجب أن يحترز غاية الاحتراز من لعن الناس، إلاّ إذا جوّز صاحب الشريعة لعنهم. والدعاء بالسوء واللعن للمسلمين هو أيضاً من اللعن المذموم، حتى الظلمة إلاّ في صورة الاضطرار.

وأمّا الطعن على المسلمين فهو أيضاً من الأفعال الذميمة. فعن الإمام الباقر عليه السلام:

«ما من إنسان يطعن في عين مؤمن إلاّ مات بشر ميتة»[3].

١٤ ـ الصفة الرابعة عشر: العجب:

وهو من إكبار المرء نفسه بسبب كمالٍ يراه في نفسه، أعمّ من كونه واجداً لذلك الكمال أو ليس واجداً له، قال البعض أن العجب هو تعظيم الشخص الصفة أو النعمة التي لديه مع نسيان المنعم.

الفرق بين العجب والكبر هو أن المتكبر يرى نفسه أعلى من الغير، ومرتبته أكبر، والعجب أن لا يرى لغيره مكاناً، والمعجب هو من يعظم نفسه ويكون فرحاً بها، ويرى نفسه وينسى المنعم. أمّا إذا فرح بصفته من ناحية كونها نعمة من الحق تعالى، الذي تكرم بها عليه بفيضه ولطفه، لا من استحقاق لدى هذا الشخص فليس عجباً. بخلاف ما إذا رأى أن هذه الصفة هي سبب كرامته ومرتبته عند الله، واستبعاد سلب الله لتلك النعمة منه

(١) قال البعض أن الله عبّر عن الجماع باللمس حياءً.

(٢) أصول الكافي، ج٢، ص٣٦٠.

(٣) أصول الكافي، ج٢، ص٣٦١.

أو ابتلائه. ويتوقع من الله الكرامة بسبب عمله، فهو يسمى الدلال والإدلال، وهو أسوأ من العجب.

لا يخفى أن العجب هو من أعظم المهلكات، فقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«دخل رجلان المسجد أحدهما عابد والآخر فاسق فخرجا من المسجد والفاسق صدّيق والعابد فاسق، وذلك أنه يدخل العابد المسجد مدلاً بعبادته يدل بها فتكون فكرته في ذلك، وتكون فكرة الفاسق في التندم على فسقه ويستغفر الله عزَّ وجلَّ ممّا صنع من الذنوب»[1].

تعريب شعر فارسي:

عـاص مـتـفـكـر بـالإلـه	أفـضـل مـن عـابـد مـتـبـاه
صار جريح الكبد من حرقة الألم	إذ اعـتـمـد عـلـى طـاعـتـه
جـاهـلا هـو فـي حـضـرة الـغـنـي	الـخـضـوع أفـضـل من الـكـبـر والأنـا
مـقـام عـجـزك ومـسـكـنـتـك	أفـضـل من طـاعـتـك وأنـانـيـتـك

الأخبار في باب العجب كثيرة، وبالجملة، العجب عشب بذره الكفر، وأرضه النفاق، وماؤه الفساد، وأغصانه الجهل، وورقه الضلال وثمره اللعنة والخلود في الجحيم.

علاج العجب هو أن تعرف ربك، وتعلم أن العظمة والجلال والكبر لا يليق بغيره. فاعرف نفسك، واعلم أنك أذل من كل ذليل، وأنه ليس لك إلاّ الذّل والمسكّنة والخضوع.

تعريب شعر فارسي:

أنـت فـي مـحـفـل الـشـمـس ذرة	ليس من شرط الأدب تعظيم النفس

(١) أصول الكافي، ج٢، ص٣١٤، عن أحدهما عليه السلام.

فلِمَ العجب والكبر والاعتداد بالنفس؟ فلست بالنهاية أكثر من ممّكن فانظر إلى حالاتك، فأنت في البداية نطفة وفي الآخر جثة نتنة، وما بينهما حمّال للنجاسات المتعفنة، وجوال على القذارات ولست أكثر.

تعريب شعر فارسي:

من المني كنت وتحمل المني أيها العبد أذكر ذاك اللباس الصوفي

وتذكر ذل وافتقار نفسك في هذه الدنيا، فأنت عاجز عن بعوضة أو ذبابة، ولا قدرة لك على دفع الحوادث والأمراض.

تعريب شعر فارسي:

لِمَ الغرور أيها المعيب القذر لِمَ الأنا يا حفنة العظام

ويجب على صاحب هذه الصفة التفحّص عن سبب ابتلائه بالعجب، فإن كان عجبه بعلمه أو معرفته أو عبادته أو غيرها من الكمالات النفسية مثلاً، فلينظر من أين حصلت لديه هذه الصفة، ومن أعطاه إياها؟ فإن علم أنها من الله، فليعجب بجوده وكرمه، وليفرح بفضله وتوفيقه.

وإذا رأى أنه وصل إليها بنفسه، فحذار فهذا جهل وضلالة!

تعريب شعر فارسي:

في قصة الحبيب تفكر بالسماء من أوج العظمة تقع على تراب الذل

وإن يكن العجب بالحسب والنسب، فعلاجه هو أن يعلم أن الفخر بكمال الغير ليس إلاّ سفاهة وجهلاً، لأن من كان ناقصاً ولا كمال لديه فما ينفعه كمال أبيه وجده.

تعريب شعر فارسي:

عندما تليق العظمة بك فبنوتك لأحدٍ غير مقيدة لك

كن كالأسد بنفسك تهزم الجيش كن ابن خصال نفسك

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1].

وفي نصيحة أعرابي لابنه: يا بني إنك مسؤول يوم القيامة عن ماذا اكتسبت، ولا يقال: ممّن انتسبت.

إذا كان العجب بالحسن والجمال، فعلاجه أن تعلم أنه سيزول بسرعة، بل يذهب جمالك، ويبطل حسنك بأدنى علةٍ أو مرض. وأي عاقل يعجب بشيء تأخذه حمى ليلة أو تفسده الجدري؟

تعريب شعر فارسي:

لا تغتر بمالك وجمالك فذاك يحمل بليلة وهذا الجمر

هكذا يعالج أسباب العجب من المال، والقوة، والجاه، والمنصب، والعقل، والذكاء، وغيرها بتذكر؛ وبأنها لا دوام لها ولا بقاء، وهي في معرض الزوال والفناء.

لا يخفى أن من جملة نتائج العجب، تزكية النفس ومدحها، بأن يكون المرء في مقام إثبات الكمال لنفسه ونفي النقص عنها. وهذه الصفة نفسها تدل على نقص صاحبها، وتنتج عكس المقصود «مدح النفس يا حبيبي دليل الجهل» وظاهر أن: «المسك هو الذي تفوح رائحته لا ما يقوله العطار».

تعريب شعر فارسي:

إذا كان المرء صاحب فنّ ففنه أن يقول لست صاحب فن

ومن المعلوم بالتجربة أن من يمدح نفسه هو وضيع وذليل في نظر جميع الناس، يقول سعدي:

تعريب شعر فارسي:

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

لا يــنــظــر الــنــاس إلــى مــن

يــفــتــخــر بــنــفــســه كــثــيــراً

لا تــقــل حــتــى يــشــكــروك كــثــيــراً

فــإن قــلــت فــلا تــتــوقــع ذلــك مــن أحــد

لا يــنــظــر الــعــظــمــاء إلــى أنــفــســهــم

لا تطلب معرفة الله من المعجب بنفسه

كــالــبــصــل ذاك الــجــاهــل كــلــه قــشــر

يــظــن أنــه ذو لــبّ كــالــفــســتــق

وضد العجب نكران الذات: بأن يرى نفسه حقيراً ذليلاً، وهو من أفضل الأوصاف. وفائدته في الدنيا والآخرة لا تحصى. وقد ثبت بالتجربة الصادقة أن صاحب هذه الصفة محترم ومحبوب عند الناس. ولم يذل شخص نفسه إلاَّ أعزّه الله. استقرار سفينة النبي نوح عليه السلام على جبل الجودي لهذا السبب. يقول سعدي:

تعريب شعر فارسي:

سـقـطـت قـطـرة مـطـر مـن الـسـحـاب

خـجـلـت فـصـارت كـالـبـحـر الـوسـيـع

أيــنــمــا يــكــون الــبــحــر فــمــن أنــا

إن كــان هــو فــحــقــاً مــن أنــا

إذ رأت نــفــســهــا بــعــيــن الــحــقــارة

نــمــا الــصــدف بــجــانــبــهــا روحــاً

وصــل بــهــا الــحــظ إلــى

أن صــارت لــؤلــؤاً مــعــروفــاً ثــمــيــنــاً

مــن ذل نــال الــعــظــمــة مــنــه

انــدكَّ فــي الــفــنــاء حــتــى صــار مــوجــوداً

فــي هــذه الــحــضــرة يــأخــذ الــصــدر
مــن وضــعــوا مــن أنــفــســهــم الــقــدر
الـطـريـق هـنـا حـبـيـبـي فـسـادةُ الـطـريـق
لـم يـنـظـروا إلـى أنـفـسـهـم بـعـزّة
بـذلـك كـان لـهـم الـشـرف عـلـى الـمـلائـك
إذ لـم يـظـنـوا أنـهـم أفـضـل مـن الـكـلـب

نعم الله موجود عند القلوب المنكسرة، ويحب المنكسرين:

تعريب شعر فارسي:

لا يشتري من سوقنا إلاّ مكسور القلب فقط
سوق بيع النفس من ذاك الطرف الآخر

١٥ ـ الصفة الخامسة عشر: الكبر:

وهو أن يرى الإنسان نفسه أعلى من الآخرين، ويعتقد بفضيلته على الغير، وقد مر فرق الكبر على العجب.

لهذه الصفة في الظاهر آثار عدة، تسمى التكبر، وهي آثار باعثة على تحقير الغير. مثل الانزعاج من مجالسته ومؤاكلته، أو انتظار السلام والتقدم عليه في المسير والمجالسة. وعدم الالتفات إليه عند الكلام معه وتحقير التكلم معه، واعتبار نصيحته وموعظته بدون وقع وأمثال ذلك. وتصدر بعض هذه الأفعال أحياناً عن الحسد والحقد أو الرياء أيضاً.

وصفة الكبر من أعظم الصفات الرذيلة، وآفته عظيمة، بل ليس هناك خلق سيء إلاّ وصاحب الكبر يحتاج إليه للمحافظة على عزته وعظمته. وليس هناك صفة حسنة إلاّ وهي ممنوعة عنه، لهذه الجهة الآيات والروايات في ذمه خارجة عن حدّ الإحصاء.

روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «**العز رداء**

الله، والكبر إزاره فمن تناول شيئاً منه أكبه الله في جهنم»[1].

وروي أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام:

«إن المتكبرين يجعلون في صور الذر يتوطؤهم الناس حتى يفرغ الله من الحساب»[2].

فحذار يا أخي من التكبر، فتواضع ما استطعت؛ وعالج الكبر. ولا تخدعنك النفس والشيطان، وترَ نفسك صاحب ملكة التواضع وخالياً من التكبر، في حال أن ذاك المرض مضمر في خفاياك، فتمتنع لهذا السبب عن معالجتها!

واعلم أنه للمتكبر وللمتواضع عدّة علامات، يجب أن تمتحن نفسك بها:

أولاً: إذا كان يتحادث مع أمثاله وأقرانه في مسألة ما وجرى الحق على لسانهم وكنت تخالفهم، فإذا اعترفت به وشكرتهم فمن المعلوم أنك متواضع، وإلاّ فأنت مبتلى بمرض الكبر، ويجب أن تعمل على معالجته.

ثانياً: إذا تقدم عليك أمثالك في المحافل والمجالس فأنت أدنى منهم، أو في المشي وأنت خلفهم. فإذا لم يظهر أي اختلاف في حالك مطلقاً فأنت متواضع، وإلاّ فمتكبِّر. وعن حضرة الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«من التواضع أن ترضى بالمجلس دون المجلس، وأن تسلم على من تلقى وأن تترك المراء وإن كنت محقاً، وأن لا تحب أن تحمد على التقوى»[3].

---

(١) جامع السعادات، ج١، ص٢٤٦. أصول الكافي، ج٢، ص٣٠٩.

(٢) جامع السعادات، ج١، ص٣٤٧. أصول الكافي، ج٢، ص٣١١.

(٣) أصول الكافي، ج٢، ص١٢٢.

ولا يخفى أن بعض المتكبرين طالبي الصدارة، يريدون تشويه الأمور فيعتذرون بأن المؤمن يجب أن لا يذل نفسه. وبعض المشتبهين من أهل العلم يتمسكون بأنه يجب أن لا يهان العلم. وهذا من حيل الشيطان؛ لأنه أين الذل والمهانة في الجلوس أدنى من أمثالك، أو إذا كانوا إلى جانبك. فإذا كان هذا العذر مسموعاً، فهو فيما إذا كان المؤمن حاضراً في مجمع أهل الكفر، أو صاحب العلم في مجلس الظلمة والفساق والجهال. إضافة إلى ذلك، إذا كان هذا عذرك، فلماذا تتغير حالك وتضطرب إذا جلست اتفاقاً في مكان أدنى. فالجلوس مرة واحدة في مكانٍ أدنى، لا يؤدّي إلى ذل الإيمان والعلم! ترى ألف مسلم وعالم يذلون بأنواع المذلة، ولا تتغير مثلما يتغير مكانك مقدار شبر من الأرض.

وبعض المتكبرين إذا دخلوا إلى مجلسٍ ولم يجدوا لهم مكاناً في الصدر، يجلسون في صف النعال، مع أنه يوجد أمكنة كثيرة خالية، بين الصدر والنعال. أو يجلسون بعض الناس الأدنين، بينهم وبين الأشخاص الذين يجلسون في الصدر، يفهموا الآخرين بأن المكان الذي نجلس فيه هوالصدر أيضاً، أو أننا تجاوزنا الصدر. وكثيراً ما إذا لم يتيسر لهم التقدم على الجميع في حال المسير أيضاً، يتأخرون قليلاً، حتى يكون هناك مسافة بينه وبين المتقدمين عنه! وجميع ذلك هو نتيجة الكبر وخبث النفس.

ثالثاً: أن لا يكون التقدم في السلام ثقيلاً عليه، فإذا كان لديه إحساس بالضيق كان متكبراً.

رابعاً: إذا دعاه فقير أجابه، وأن يسعى في الأزقة والشوارع من أجل حاجات ولوازم رفاقه وأقربائه. وأن يشتري كذلك ضروريات بيته من الماء والخبز والحطب واللحم وغيره، ويحمله بنفسه إلى منزله، فإذا كان ذلك ثقيلاً عليه فهو متكبر.

ويستفاد من بعض الأخبار، أنه إذا وصل شخص إلى حدٍ، يكون

ارتكاب ذلك قبيحاً ومؤدّياً لغيبة الناس له، فتركه أفضل[1]. وهذا يختلف نسبة للأشخاص والبلدان والعصور، ولكن يجب على الإنسان أن لا ينخدع وأن لا يتكبر بسبب نسبته له.

خامساً: أن لا يكون ارتداء الألبسة القديمة والرخيصة والخشنة والوسخة ثقيلاً عليه.

سادساً: أن يأكل مع جواريه، وغلمانه، وخدمه على سفرة طعام واحدة، كما نقل عن صفات السلطان حضرة الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام[2].

امتحانات الكبر والتواضع لا تنحصر بذلك، بل هناك أعمال وآثار أخرى كثيرة أيضاً. كأن يريد أن يقف شخص بجانبه، أو يريد أن يسير معه في الأزقة والشوارع، ويتأخر عن زيارة ومجالسة الفقراء والمرضى، ولا يتأذى لآلامهم.

ضد صفة الكبر التواضع: الذي من لوازمه عدة أعمال وأقوال تدل على تعظيم الآخرين. والمداومة عليها هي أقوى علاج لمرض الكبر وهي من شرائف الصفات، وروي أنه لا يتواضع شخص إلاّ أعزه الله.

والله عزَّ وجلَّ أمر أفضل خلقه بالتواضع فقال:

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[3].

فمن يترك التواضع، فهو مخدوع في شرف ذاته وعلو قدره أما من كان عظيماً وذا مقام عالٍ، فهو لا يخاف من التواضع. لأن التواضع لا يقلل من عظمته وجلاله شيئاً، بل يزيد من شوكته عند الخالق، والخلق. ومن

---

(١) أصول الكافي، ج٢، ص١٢٣، ج١٠.
(٢) جامع السعادات، ج١، ص٣٥٦.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

هنا يعلم أن التكبر هو من خصائص الناقصين، والساقطين الذين غرضهم منه ستر نقصان أنفسهم، ولكنه بالحقيقة يلوّح بقبائحهم، ويفضح عيوبهم.

تعريب شعر فارسي:

مـن الـتـراب خـلـقـك الإلـه الـجـلـيـل

فـاخـضـع كـالـتـراب أيـهـا الـعـبـد الـذلـيـل

الـتـواضـع يـرفـعـك	والـتـكـبـر يـرمـيـك عـلـى الـتـراب
عـزيـز مـن جـلـس مـتـواضـعـاً	لا يـقـع فـي الـذل بـعـد الـعـز
ويقع الـمتكبر السيء على رقبته	فـعـلـوّك أن لا تـطـلـب الـعـلـوّ
عـلـوّك أن تـخـتـار الـتـواضـع	فليس لهذا السطح إلاّ هذا السلّم

واعلم أنه قد ذكر في السابق أن كل صفة فضيلة هي في الوسط، وأن طرفي الإفراط والتفريط مذمومان. طرف إفراط التواضع هو التكبر الذي ذكر، وطرف التفريط هو الذل والمهانة. فكما أن التكبر مذموم كذلك إذلال النفس مذموم أيضاً.

اعلم أيضاً أن التواضع جيد مع غير المتكبرين، أما المتكبرين فعدم التواضع والتذلل لهم أفضل؛ لأن التواضع لهم يبعث على إذلالك، ويوجب ضلالتهم وزيادة تكبرهم. وفي الحديث النبوي عنه ﷺ:

«إذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم، وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فإن في ذلك لهم مذلة وصغار»[1].

١٦ ـ الصفة السادسة عشر: العصبية:

التي هي عبارة عن السعي لحماية النفس، أو الشيء المنسوب لها، من الدين، والمال، والقبيلة، وأهل الولاية، وأهل الصنعة، وأمثال ذلك.

---

(١) المحجبة البيضاء، ج٦، ص٢٢٢. إحياء علوم الدين، ج٣، ص٣٤١.

وهي على قسمين: لأن الشيء الذي يحميه، إمّا أن يكون شيئاً يلزم أو يستحسن حمايته شرعاً، ولا يتجاوز في حمايته عن الحق والإنصاف، ـ فهذا القسم ممدوح ومن الصفات المحمودة، ويسمى الغيرة.

وإلاّ كان عصبيته، وهي مذمومة ومتعلقة بالقوة الغضبية. فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«من كان في قلبه حبة من خردل من عصبية، بعثه الله يوم القيامة مع إعراب الجاهلية»[1].

١٧ ـ الصفة السابعة عشر: كتمان الحق والانحراف عنه:

وسببها إمّا العصبية أو الجبن، وأحياناً يكون سببها الطمع. على كل حال هذه الصفة من الرذائل المتعلقة بالقوة الغضبية، إمّا من جانب الإفراط أو من طرف التفريط. ويوجد ضمن هذه الصفة صفات خبيثة جداً مثل كتمان الشهادة، شهادة الزور، وتصديق أهل الباطل، وتكذيب الحق. وهلاك الإنسان بسبب أي واحدة منها ظاهر، ومستغن عن البيان، فيجب على كل مسلم أن يحمي نفسه منها، ويتحتم عليه اجتنابها.

ضدها الإنصاف، والوقوف على الحق الذي هو من الصفات الكمالية، وصاحبها عزيز ومحترم في الدنيا والآخرة.

١٨ ـ الصفة الثامنة عشر: قساوة القلب:

التي هي عبارة عن حالة تجعل الإنسان لا يتأثر من الآلام والمصائب التي تصل إلى الآخرين، ومنشؤها غلبة قوة السبعية. كثير من الأفعال الذميمة مثل: الظلم، والإيذاء، وعدم نصرة المظلومين، وعدم مساعدة الفقراء والمحتاجين تنشأ من هذه الصفة.

---

(١) أصول الكافي، ج٢، ص٣٠٨.

تعريب شعر فارسي:

بنو آدم أعضاء بعضهم البعض   ومن الخلق من جوهر واحد
إذا آلم الدهر منه عضواً   لا تبق قريرة سائر الأعضاء
إن لم تغتم بمحنة الآخرين   فلا تستحق أن تسمى إنساناً

ضدها رقة القلب والرحمة التي تترتب عليها آثار حسنة وصفات قدسية. ولقد وردت أخبار كثيرة في فضيلة هذه الصفة وذمها. علاج القساوة في نهاية الصعوبة، لأنها صفة راسخة في النفس لا يتيسر تركها بسهولة. ويجب معالجتها بالتدريج بالمواظبة على ما هو من آثار رحمة القلب، لتستعد النفس للإفاضة من المبدأ الفياض، وتحصل لها صفة الرقة وتزول القساوة.

المقام الرابع

في بيان ما هو متعلق بالقوة الشهوية من الرذائل، والفضائل، وطريق تحصيلها:

لقد علمت أن حد الاعتدال للقوة الشهوية هو صفة العفة، التي هي منشأ جميع الصفات الكمالية المتعلقة بهذه القوة. وطرفاها الشره، والخمود اللذان هما جنسا جميع الرذائل المتعلقة بهذه القوة. نحن أولاً سنبيّن هذه الجنسين وضدهما الذي هو العفة، وبعد ذلك نبدأ بشرح الصفات المندرجة ضمنها.

ففي هذا المقام أمران:

الأمر الأول:

في بيان جنسي الصفات الخبيثة المتعلقة بالقوة الشهوية وضدهما، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول

في بيان الشره الذي طرف هو إفراط القوة الشهوية، وهو عبارة عن متابعة البطن والفرج، والحرص على الأكل والجماع. ولا شك في أن هذه الصفة من أعظم المهلكات، لهذا السبب قال رسول الله ﷺ:

«من وقي شر قبقبه وذبذبه ولقلقه فقد وقي الشر كله»[1].

وسئل عن أكثر ما يدخل النار، فقال:

الأجوفان الفم والفرج»[2].

وقال الصادق عليه السلام:

«إذا شبع البطن طغى»[3].

بالجملة أن متابعة البطن والفرج كليهما موجبة لآفات كثيرة. أما عبادة البطن، فلا شك في أن أكثر الأمراض تحصل منها، وكم من نعمة حرمت الإنسان من أطعمةٍ كثيرة. كما أنه يترتب على عبادة البطن مفاسد كثيرة مثل: الذل، والمهانة، والحمق، والبلادة، بل إن أغلب الأمراض منشؤها البطن.

لولا إتباع البطن لما وقع في الفخ طائر، بل لما وضع شركاً صياد.

تعريب شعر فارسي:

لا تتبع كل ما القلب أراد	فتمكين الجسم يقلُّ نور قلبك
النفس الأمارة تجعل الرجل ذليلاً	إن كنت حكيماً تعزّها
وإن أكلت كل ما هو مرادها	تحمل غير المراد كثيراً من الدهر
البطن قيد اليد والرجل	عبد البطن قليلا ما يعبد الله

كما أن للبطنة آفات كثيرة، للجوع أيضاً ثمرات لا تحصى. فهو يجعل القلب نورانياً مضيئاً، والذهن حاداً، ويصل الإنسان بسببه إلى لذة المناجاة مع قاضي الحاجات، ويبتهج بالذكر والعبادة، ويرحم أرباب الفقر والفاقة.

---

(١) إحياء العلوم، ج٣، ص١٠٩.

(٢) إحياء العلوم، ج٣، ص١٠٩.

(٣) المحجة البيضاء، ج٣، ص٩١.

والجوع يذكر بيوم القيامة، ويظهر انكسار النفس في الإنسان، ويسهل عليه الطاعة والعبادة، ويجعله خفيف المؤونة. ويجعل البدن صحيحاً، ويبعد عنه الأمراض. وقل ما يوجد أمر تقاس فائدته بفائدة الجوع.

فعلى عابدي البطن أن يعملوا على علاج أنفسهم، وأن ينظروا إلى آفات البطن وفوائد الجوع، في الآيات والأخبار المتعلقة بهذا المقام. وأن يتابعوا طريقة الأنبياء، والأئمة، وأكابر العلماء، والعرفاء[1]، ويروا أن من وصل منهم إلى مقام ما فإنه لم يكن بغير مشقة الجوع.

تعريب شعر فارسي:

ابق الجوف خالياً من الطعام لترفيه نور المعرفة
من الحكمة خالٍ لأنك تزى الجوف مليئاً بالطعام

وليتأملوا في أنه هل مشاركة ومشابهة الملائكة أفضل أم مشاركة البهائم.

تعريب شعر فارسي:

ما لم يعرف الإنسان إلا الأكل والنوم فبما فضيلته على الدواب
يصير المرء ملاكاً من قلة الأكل وإن يأكل كالبهائم يصير كالجماد

وأما اتباع شهوة الفرج، الحرص على الجماع، فلا شك أن صاحبه بعيد عن سلوك طريق الآخرة. بل كثيراً وما تغلب عليه القوة الشهوية، وتضمحل قوة الدين، ويزول خوف الله، وتدفع الإنسان إلى ارتكاب الفواحش. وإذا كانت القوة الواهمة غالبة على شخص تجره هذه الشهوة إلى العشق البهيمي. وهو مرض يعرض على القلوب الفارغة، الخالية من

---

(١) المراد من «العرفاء» في اصطلاح علماء الإسلام هم العرفاء المسلمين المتشرعين الذين هم فضلاً عن كونهم ملتزمين بأحكام الشرع، يعتبر الله سبحانه فقط هو موضوع مسائلهم الفكرية.

محبة الله، والبريئة من الهمّة العالية. فعلى من لم يكن عدو نفسه، أن يحفظ نفسه من مبادىء الشهوة من الفكر والنظر والخلوة والكلام.

أكثر الفتنة تنشب في قلب | من لم يكن لنظره حافظاً

لأنه بعد هيجان القوة الشهوية يكون إمساكها صعباً، ولهذا ورد أنه:

«إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله»[1].

إن فاقدي العقل هم طائفة يبحثون عن الأطعمة والمعاجين المقوية للباه مع أن شهوتهم قوية، ليتمكنوا من الجماع أكثر. فكيف يفعل العاقل ذلك، والحال أن المفرط في هذا الأمر بحسب التجربة سخيف، وفي أكثر الأوقات مريض وضعيف، وعمره قصير. وكثير ما يختل دماغه ويفسد عقله. لا يغرنك أن العقل الكل، سيد الرسل ﷺ قد طلب كثرة النساء، وتقيسنّ نفسك به!

«لا تقس عمل الأخيار بنفسك».

تعريب شعر فارسي

هو ليس مثلنا وإن كان منا | نحن كلنا نحاس وأحمد الكيمياء

وإن كانت الدنيا كلها منه، لم تشغل قلبه لحظة، ولم تطرأ على فكره ساعة.

تعريب شعر فارسي:

عارفوا طريق العشق في ذا البحر العميق غرقوا ولكنهم بالماء لم يبتلّوا.

لقد كان جانب التجرد غالباً على وجوده المبارك، بحيث أنه لو لم يتعلق شوك الماديات وقشّها بأذياله، لفرّ من عالم الماديات. لهذه الجهة

---

(١) جامع السعادات، ج٢، ص١٠. المحجة البيضاء، ج٣، ص١٠٥.

طلب جنابه نساءً متعددة، وشغل نفسه المقدسة بهن، لكي يكون له في الجملة التفات إلى الدنيا، ولا تؤدي كثرة استغراقه في لجة الشوق الإلهي إلى مفارقة روحه المقدسة. لذلك كان كلما أخذته خشية الاستغراق، يقول لعائشة: «**كلميني يا حميراء**»[1].

الفصل الثاني

في بيان الخمود الذي هو طرف تفريط القوة الشهوية: وهو عبارة عن التقصير في تحصيل مقدار الضرورة من القوت لسد الرمق، والكسل عن المقدار اللازم في شهوة النكاح، بحدٍّ يؤدي إلى زوال القوة، وتضييع العيال وقطع النسل. لا شك أن هذه الصفة مذمومة في الشرع، لأن تحصيل المعرفة، والسعي في عبادة الرب (تعالى)، واكتساب الفضائل، ورفع الرذائل موقوف على قوة البدن. فالتقصير في إيصال الغذاء للبدن يحرم الإنسان من السعادة، وكذلك إهمال قوة شهوة النكاح تحرمه من فوائد كثرة.

الفصل الثالث

علمت أن ضد جنسي الشره والخمود هو العفة، وهو عبارة عن إطاعة القوة الشهوية للقوة العاقلة واتباعها بما تأمر، واجتناب ما تنهى عنه، وهو حدّ الاعتدال الممدوح في الشرع والعقل. فلا تظنّنّ السبب ما ورد في فضيلة الجوع أن إفراطه ممدوح، بل المراد قلة الأكل بحدٍّ لا يحس الإنسان بثقل الطعام، ولا تغلب عليه الحيوانية، ولا بحدٍّ تزول قوته ويفسد مزاجه.

والمعيار هو أن لا يأكل حتى يشتدّ جوعه، ويرفع يده وما تزال رغبته

---

(١) إحياء علوم الدين، ج٣، ص١٠١، في حاشيته عن العلامة زين الدين العراقي المتوفي سنة ٨٠٦هـ. لم أجد مدركاً وأصلاً لهذا الحديث.

به، كما سئل حكيم كم تأكل في اليوم؟ قال: ما يعطي القوة، هذا المقدار يحملك وما زاد على ذلك فأنت حامله.

تعريب شعر فارسي:

الأكــل لــلــحــيــاة والــذكــر   وأنـت مـعـتـقـد أن الـحـيـاة لـلأكـل

ويجب أن لا يكون غرضه من الأكل اللذة، بل التقوي على عبادة المعبود.

واعلم أن العرفاء كثيراً ما رغّبوا بالجوع. ونقل العديد من القصص في الصبر على الجوع. وذكروا عن بعضهم أنهم كانوا لا يأكلون مدة شهر أو اثنين أو أكثر، وهو أمر وراء ما ذكرته الأخبار، وغير ما كلّف به العامة، إذا كان جيداً فهو لبعض الناس، وليس تكليفاً للجميع.

وأما الجماع فحدّ اعتداله أن يقتصر على قدرٍ لا ينقطع النسل به، وأن يفرغ نفسه من وسوسة الشيطان، ويخرج خطرات الشهوة من قلبه.

الأمر الثاني:

في بيان سائر الصفات المتعلقة بالقوة الشهوية، وتنشأ من الجنسين المذكورين وهي كثيرة:

١ ـ الصفة الأولى: حب الدنيا الدنية:

الذي هو سر كل خطيئة.

اعلم أن الدنيا للعباد هي عبارة عن ما للعبد فيه قبل موته حظ، وفائدة، وغرض، ولذة. وما يميل إليه الإنسان في هذا العالم قسمان:

الأول: ما تصل إليه فائدته بعد الموت، وغرضه تحصيل ذاك الأثر والثمرة الأخروية، مثل العلم النافع، والعمل الصالح، الذي يلتذ به صاحبه. وهذا وإن كان من الدنيا، إلاّ أنه ليس الدنيا المذمومة، ويسمونه

الدنيا لأنه يحصل فيها. ولهذا عدّ رسول الله ﷺ الصلاة من الدنيا وقال:

«حبَّب إليّ من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وقرة عيني في الصلاة»[1].

وكذلك لا يحسب من الدنيا تحصيل المقدار اللازم في بقاء حياة ومعاش العيال وحفظ ماء الوجه، بل هو من الأعمال الصالحة. روي عن جعفر بن محمد عليه السلام عن رسول الله ﷺ: **«إن العبادة سبعون جزءاً وأفضلها طلب الحلال»**[2].

روي أيضاً أنه ليس منا من ترك الدنيا لأجل الآخرة، أو ترك الآخرة لأجل الدنيا[3].

الأنبياء والأئمة عليهم السلام كانوا جميعاً يعملون بأيديهم؛ وكانوا يزرعون ويحرثون ويقومون بغير ذلك[4].

وأمّا القسم الثاني: المذموم، وهو ما كان التعلق والارتباط والالتذاذ به لا لإصلاح الآخرة، بل لمجرد رغبة النفس. الهوى هو عبارة عن الميل إلى الملذات، والتعلق بالدنيا الذي تتولد منه جميع أمراض القلب مثل: الرياء، والحسد، والحقد، والكبر، والحرص، والطمع، وغيره، وهذا ما يمنع الإنسان عن عمل الآخرة. الآيات والأخبار في ذم الدنيا وعدم الاهتمام بصفاتها وحالاتها تزيد عن حدّ الحصر والإحصاء، لا يسعُ هذا المختصر ذكر عشر من أعشارها.

ويكفي في ذمها أنها عدو الله وعدو أوليائه، وحبيبة أعدائه. وحبها

---

(١) وسائل الشيعة، ج١، ص٤٤٢. مع اختلاف بسيط «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب وجعل قرة عيني في الصلاة».

(٢) وسائل الشيعة، ج١٧، ص٢٤.

(٣) وسائل الشيعة، ج١٢، ص٤٩.

(٤) وسائل الشيعة، ج١٢، ص٢٢.

رأس كل خطيئة، وحبها يجعل الإنسان أعمى أصم أبكم ذليلاً. وهي معروفة بالغدر والمكر والخيانة، ومثلها كمثل ماء البحر، كلما شرب منه العطشان، اشتد عطشه حتى يقتله. وهي تشبه الحية ظاهرها أنيق ناعم، وباطنها مليء بالسمّ القاتل. وقد قال العقلاء:

عذار وجهِ الحسان سلاسل أرجل العقل، وفخ الطائر الذكي.

كل ما ورد من الفقيه والعجوز والمريد على لسان القائلين طهر النفس:

تعريب شعر فارسي:

للدنيا الدنيئة لما انحدر تعلق بالعسل مثل الذباب
لا تأمن دلال الدنيا هذه العجوز مكّارة تبقى وتذهب محتالة
الدنيا امرأة مدللة جذابة ولكن لا تعقد مع أحد عهد الزواج
حامل تقتل من أولادها هذا العدد هل ينتظر منها رحمة الأمومة

واعلم أن مفاسد الدنيا على قسمين: دنيوية وأخروية.

أما مفاسدها الدنيوية: فهي المشاقّ والصعاب والشدائد التي يبتلى بها الأغنياء، من الخوف والحزن والغمّ واضطراب الحواس، ومرّ العيش، وتعب تحصيل المال وحفظه، ودفع السارق والظالم والحاسد عنه.

أمّا مفاسدها الأخروية: فهي على ثلاثة أنواع:

الأول: أنها باعثة على ارتكاب المعاصي، لأنه تحصل بواسطتها القدرة عليها والوصول إليها.

الثاني: أنها باعثة على الغرق في النعم والملذات، وصاحب الدنيا يعتاد عليها. وكثيراً ما يمدّ يده إلى المال المشتبه إذا لم يتيسّر الحلال، ثم يتجاوزه بالتدريج فيقع في الحرام. ولهذا السبب يبتلى بأنواع الأخلاق الرذيلة من الكذب والنفاق والرياء والحسد وغيرها.

الثالث: المفاسد التي لا يخلو منها صاحب مال، وهي المحافظة

على المال، وإنجاز الأمور المتعلقة به التي تمنع الإنسان عن ذكر الله الذي هو روح العبادة.

تعريب شعر فارسي:

ضيعة وليس قلباً ذاك الذي فيه بقرة وحمار وضياع وعقار

ويقول سعدي:

لأن قلبك يذهب عنك كل ساعة إلى مكان
وإن كنت وحيداً فلن ترى صفاءً
وإن كنت صاحب مال وجاه وزرع وتجارة
فلأن القلب مع الله أجلس في الخلوة

وضد حب الدنيا والمال الزهد: الذي هو عبارة عن قلع القلب من الدنيا، والاكتفاء بقدر الضرورة لحفظ البدن. أو عبارة عن استدبار الدنيا واستقبال الآخرة، وهذه الصفة هي أعلى مقامات السالكين. روي عن رسول الله ﷺ:

«ومن زهد في الدنيا وقصر فيها أمله أعطاه الله علماً بغير تعلم وهدى بغير هداية»[1].

وروي أيضاً عن أبي عبد الله عن أمير المؤمنين عليه السلام أن: **«علامة الراغب في ثواب الآخرة زهده في عاجل زهرة الدنيا، أما زهد الزاهد في هذه الدنيا لا ينقصه ممّا قسم الله عزَّ وجلَّ له فيها وإنّ زهد، وإنّ حرص الحريص على عاجل زهرة الحياة الدنيا لا يزيده فيها، وإنّ حرص فالمغبون من حرم حظه في الآخرة»**[2].

يكفي في فضيلة الزهد أن جميع الأنبياء والأولياء وصفوا بهذه الصفة،

---

(١) إحياء علوم الدين، ج٣، ص٢٠٤.
(٢) أصول الكافي، ج٢، ص١٢٩.

بل كانت أشهر صفاتهم. ولم يبعث نبي إلاّ بالزهد. وزهد الأئمة الراشدين، وأكابر الصحابة والتابعين، وعظماء الدين من العلماء والصالحين مسطور في الكتب والأحاديث والتواريخ. حتى أن بعضهم عاشوا خمسين أو ستين سنة أغلب أوقاتهم ساجدون لله، لم يفرشوا فراشاً للنوم، ولم يوضع لأحدهم وعاء على نار. بل كانوا يقفون الليل على أقدامهم، تجري مدامعهم، ينتحبون، ويناجون قاضي الحاجات. ولصفةِ الزهد درجات ومراتب عديدة ليس هذا مكان ذكرها.

٢ ـ الصفة الثانية: الغنى والاستطاعة:

وله مراتب لا متناهية، وليس كل غنى وثروة مذموماً، بل هي أقسام عديدة بعضها مذموم، وهي الأقسام التالية:

الأول: أن يسعى صاحب المال بلا نهاية لتحصيل المال، وإذا فقده يحزن.

الثاني: أن رزق المال بدون تعب، وهو سعيد به، ويحزن ويغتمّ عند ذهابه.

الثالث: أن لا يتعب نفسه لأجله، ولا يفرح بوجوده، ولا يحزن عند ذهابه.

الغني أيضاً إمّا أن يكون جميع ماله أو بعضه حرام أو حلال. وإما أن يقصر في إعطاء حقوقه أو لا يقصر. هذه الأقسام التي ذكرت بعضها رذيلة ومذمومة، وبعضها الآخر ليس كذلك. لكن الغالب أن لا يسلم صاحب المال من خطره وآفاته، لهذا قال الحق تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[١].

---

(١) سورة العلق، الآية: ٦.

وروي أنه:

«ما من يوم إلاّ وملك ينادي من تحت العرش. يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك»[1].

تعريب شعر فارسي:

لا تضع في العالم قلبك فهو غريب   كالمغنيّ كل يوم في منزلِ
لا يليق العيش مع جميلة   كل صباح تختار زوجاً

ضد الغنى الفقر، وهو عبارة عن فقدان ما يحتاج إليه الإنسان. فإذا كان من الضروريات، سمي صاحبه مضطراً، وإذا كان المقدار الضروري موجوداً، وصاحبه سعيد به ولا يحب الزائد عنه سمي ذلك الشخص زاهداً.

أمّا إذا كان يحب الزائد ولكنه لا يطلبه، سمي قانعاً. وإذا كانت الرغبة زائدة ويبذل نهاية التعب في طلبه، أو لا يمسك يده عن طلبه بسبب العجز سمي حريصاً.

وإذا كان وجود مال الدنيا وعدمه عنده متساويين، وكان راضياً بالغنى والفقر كليهما سمي مستغنياً، ومرتبته أعلى من الزاهد.

هذه الأقسام التي ذكرت للفقر، بعضها ممدوح وبعضها مذموم، كما لا يخفى. وبالجملة، وإنّ كانت أقسام الفقر كما علمت مختلفة، لكن صفة الفقر في نفسها أفضل نسبة للغنى، والأخبار في مدحه كثيرة. فقد روي أن:

«الفقر أزين للمؤمن من العذار على خد الفرس»[2].

تشبيه الفقر باللجام، من جهة أنه كما أن اللجام يحفظ الفرس من الطغيان والوقوع في الهلاك، الفقر أيضاً يحفظ المؤمن من المفاسد. وقد

---

(١) جامع السعادات، ج٢، ص٧٧. وفي إحياء العلوم، ج٣، ص٢٣٩، وج٤، ص٢٠٠. والمحجة البيضاء، ج٣، ص٢٤٤. نقل هذا الأمر عن ابن مسعود.

(٢) أصول الكافي، ج٢، ص٢٦٥.

مرّ في السابق بيان آفات الغنى وأخطاره الكثيرة، والفقير ناجٍ من هذه الآفات والأخطار قهراً.

روي أيضاً أن:

«الناس كلهم مشتاقون إلى الجنة، والجنة مشتاقة إلى الفقراء»[١].

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال:

«إن الله عزَّ وجلَّ يلتفت يوم القيامة إلى فقراء المؤمنين شبيهاً بالمعتذر إليهم»[٢].

يكفي في هذا المقام الحديث النبوي الشريف عنه صلى الله عليه وآله:

«الفقر فخري»[٣].

وقوله صلى الله عليه وآله:

«اللَّهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين»[٤].

يقول حافظ:

أرخــص لــي دولــة الــفــقــر إلــهــي

هذه الكرامة سبب حشمتي وتمكيني

فيا أيها الفقير أعرف قدر هذه الصفة ولا تحزن، فهذان اليومان الفانيان سيمران على كل حال، وما أن يرف جفنك يحين الرحيل، ولا فرق بين الفقير والغني:

---

(١) جامع السعادات، ج٢، ص٨٣.

(٢) أصول الكافي، ج٢، ص٢٦١.

(٣) جامع السعادات، ج٢، ص٨٣.

(٤) جامع السعادات، ج٢، ص٨٢. قال في إحياء العلوم، ج٤، ص١٩٣. المراد من المسكّنة الافتقار الوجودي لله لا الفقر المصطلح وعليه لا مناقضة بينه وبين الدعاء عنه صلى الله عليه وآله: «أعوذ بك من الفقر».

تعريب شعر فارسي:

ساعةَ التي يموت ذا وذاك   لا يريد من الدنيا إلاّ الكفن

بل يجب أن تكون في تمام السعادة، لأنك نجوت من آفات المال والغنى، وستكون فارغ البال من الحساب يوم الحساب.

«لا تعش في الهمّ لفقد الدرهم، ولا تبع الدين بالدنيا فيوم الجزاء يقال أعطنا الدين لا الدينار».

في الحديث النبوي عنه ﷺ:

«لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضياً»[1].

لا يخفى أن فضيلة الفقر في رضى الفقير بفقره، وسعادته به. وإذا كان يحسّ بكره له، فهي ككراهة المحجوم للحجامة، إنّ كان يحسّ بألم إلاّ أنه سعيد به. فيجب أن يعلم أنه من الله ويكون سعيداً لذلك، ويكون في داخله متوكلاً على الله، ويعلم أنه ينعم عليه بمقدار الضرورة؛ ويقنع به، ولا يطلب الزيادة. فيقطع طمعه عن الخلق، ولا يلتفت إلى ما في أيديهم. ويجب على الفقير أن لا يكون حريصاً على تحصيل المال من أي مكان كان، وأن يكون دائماً حسن الخلق ومطيعاً للرب، ولا يشكو حاله، وأن يكون شاكراً وصابراً. وأن يظهر الاستغناء، ويخفي عمله، وأن لا يجالس الأغنياء، ولا يتواضع لهم بسبب المال. بل أن يتكبر، ويفتخر عليهم من هذه الناحية.

روي أن الخضر والإمام علي عليه السلام اجتمعا فقال له الإمام علي عليه السلام: **«قل كلمة حكمة فقال: ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء قربة إلى الله. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقة بالله، فقال الخضر: ليكتب هذا بالذهب»**[2].

---

(١) جامع السعادات، ج٢، ص٨٧. إحياء العلوم، ج٤، ص١٩٩.

(٢) بحار الأنوار، ج٣٩، ص١٣٢.

ويحسن من الفقير إذا زاد قليل من قوته، أن يبذله في سبيل الله، وثواب ذاك القليل أكثر من الأموال الكثيرة التي يبذلها الغني. وأن لا يطلب من أحدٍ شيئاً ما دام ذلك ممكناً له؛ لأنه متضمن للشكوى من الله، وإذلال النفس، وإيذاء المسؤول. فرسول الله ﷺ ضمن الجنة لطائفة من الأنصار، شرط أن لا تسأل أحداً شيئاً، فقبلوا. وكانوا إذا وقع سياط أحدهم في السفر، لا يطلب من رفيقه الراجل أن يعطيه إياه، بل كان ينزل ويأخذه. وإذا كانوا يجلسون على سفرة، وكان الماء قريباً من أحدهم، لم يطلبه الآخر منه[1].

فيا أيها الأخ إرفع يد الحاجة إلى الحق تعالى ما استطعت، ولا تمدها إلى من هو مثلك.

تعريب شعر فارسي:

لا تـرق مـاء وجـهـك عـلـى كـل حـقـيـر
الحاجة الجميلة هي ما نرفعه إلى قاضي الحاجات

ولا ترق ماء وجهك عند لئام الدهر من أجل لقمة خبز، واعلم أن خبزك وبصلك اليابس أفضل من لحم الناس المشوي بألف مرة.

تعريب شعر فارسي:

كـن قـنـوعـاً واتـرك الـدنـيـا الـدنـيـة
فشعيرة منّة الأدنين أغلى من ألف منٍّ ذهبا

واعلم أن خلعة السلطان وإنْ كانت عزيزة، لكن لباسك الخَلِق أكثر عزة، وطعام الكبار وإنْ كان لذيذاً، ولكن بطنك الضامرة أكثر لذة.

تعريب شعر فارسي:

الـخـل مـن تـعـبـي والـعـشـب خـيـر مـن خـبـز الأمـيـر ولـحـمـه

قال الحكماء:

---

(١) جامع السعادات، ج٢، ص٩٧.

«إذا بيع ماء الحياة بماء الوجه فلا يشتريه حكيم، فالموت بعلةٍ أفضل من الحياة بذلة».

تعريب شعر فارسي:

لأجل نعمة الدنيا التراب على رأس من

يحمل من منَّة اللئام حملاً على عنقه

تذهب النعمة من يد الولي بعد مدة ويبقى أبد الدهر العار على الرقبة

٣ ـ الصفة الثالثة: الحرص:

وهو صفة تدفع الإنسان إلى جمع الزائد عن ما يحتاجه، وهو إحدى شعب حب الدنيا ومن المهلكات. بل هذه الصفة هي صحراء لا يرى لها حد، ولا تصل إلى طرفها من أي جهة ذهبت، وبئر عميقة بلا نهاية مهمّا نزلت فيها لا تجدّ قعرها! المسكين الذي يعلق فيها هالك؛ لأن الحريص لا ينتهي حرصه أبداً. لو جمع جلّ مال الدنيا، لفكر أيضاً في الحصول على الباقي.

يقول سعدي:

«يأكل عشرة رجال من سفرة، ولا يقعد كلبان على جيفة. الحريص على عالمٍ يجوع والقانع يشبع برغيف».

قال الحكماء: «الدرويش بقناعة أفضل من قوي ذي بضاعة».

من ابتلى بهذا المرض فخلاصه منه في غاية الصعوبة، لهذا قال رسول الله ﷺ:

«لو كان لابن آدم واديان من ذهب. لابتغى وراءهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلاّ التراب، ويتوب الله على من تاب»[1].

وقال ﷺ:

(١) جامع السعادات، ج٢، ص١٠١. إحياء العلوم، ج٣، ص٢٣٨.

«**يهرم ابن آدم ويشبُّ معه اثنتان الأمل وحب المال**»[1].

وفي رواية: «**الحرص وطول الأمل**».

وقال الباقر عليه السلام: «**مثل الحريص على الدنيا كمثل دودة القز، كلما ازدادت على نفسها لفاً، كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غمّاً**»[2].

ضد الحرص القناعة، وهي ملكة تبعث على اكتفاء الإنسان بقدر الحاجة والضرورة، وعدم الجدّ في تحصيل فضول المال. هذه الصفة من جملة الأخلاق الحسنة؛ وجميع الفضائل منوطة بها، بل ترتبط بها راحة الدنيا والآخرة، والقانع أغنى الناس.

تعريب شعر فارسي:

لا يحني العالِمُ لسلطان رأسه
إذا عرف سرَّ القناعة مسكين

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«**ابن آدم إنّ كنت تريد من الدنيا ما يكفيك، فإن أيسر ما فيها يكفيك. وإنّ كنت إنمّا تريد ما لا يكفيك، فإنّ كل ما فيها لا يكفيك**»[3].

تعريب شعر فارسي:

عيون أهل الطمع بنعمة الدنيا لا تمتلىء كما البئر بالندى

والأخبار في فضيلة القناعة كثيرة، يكفي هذا الخبر المشهور: «**عزّ من قنع وذل من طمع**»[4].

قال سعدي:

---

(١) إحياء العلوم، ج٣، ص٢٣٨.

(٢) جامع السعادات، ج٢، ص١٠٢. أصول الكافي، ج٢، ص٣١٦.

(٣) أصول الكافي، ج٢، ص١٣٨.

(٤) جاء في غرر الحكم، ج٧، ص٣٢٨: «قد عز من قنع».

تعريب شعر فارسي:

اقنعي يا نفس بالقليل	فالسلطان والمسكين واحد
لِمَ تذهبين لخسرو وبحاجةٍ	إن تطمعي لواحد فأنتِ خسرو[1]
وإن تعبدي البطن فاقرعي	باب هذا وذاك قبلتك اجعلي

٤ ـ الصفة الرابعة: الطمع:

وهو من فروع الدنيا ومن الرذائل المهلكة، فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«تفضل على من شئت، فأنت أميره. واستغن عمّن شئت، فأنت نظيره. وافتقر إلى من شئت، فأنت أسيره»[2].

إن عبودية، وانكسار، وذلة، ومهانة الطامع هي أمر معلوم وظاهر بوضوح، لأن الطامع يذهب إلى باب هذا وذاك طمعاً بلقمة خبز. ويسمي نفسه أحياناً بالعبد الحقير؛ ليأكل من فتات سفرته. ويحيك بعض الكذب تملقاً لكل غير ذي شأن، ليلبسه لباساً. ويسجد لكافر، ليضع على رأسه قبعة. ويتحزم لخدمة فاسق ليربط له حزاماً. فمّا أشدّ ذلة وحقارة هذا الشخص.

ضد الطمع الاستغناء وعدم الحاجة للناس، الذي هو من الفضائل الباعثة على القرب للرب. لأن من قطع طمعه عن غير الله أحبه الله، وهذا هو الغنى الحقيقي.

طلب أعرابي موعظة من رسول الله صلى الله عليه وآله فقال صلى الله عليه وآله:

«إذا صليت فصل صلاة مودع، ولا تحدثن بحديث تعتذر منه غداً، واجمع اليأس عمّا في أيدي الناس»[3].

---

(١) ملك من ملوك الفرس.

(٢) بحار الأنوار، ج٧٣، ص١٦٩.

(٣) إحياء علوم الدين، ج٣، ص٢٣٩.

وروي عن الإمام السجاد عليه السلام أنه قال:

«رأيت الخير كله قد اجتمع في قطع الطمع عمّا في أيدي الناس. . .»[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام:

«شرف المؤمن قيام الليل، وعزّه استغناؤه عن الناس»[2].

٥ ـ الصفة الخامسة: البخل:

المراد منه الإمساك عن ما يجب بذله. وهو من الصفات الخبيثة، ونتيجة حب الدنيا. وقد أقسم الله عزَّ وجلَّ بعزّته وعظمته أن لا يدخل البخيل الجنة. والبخيل بعيد عن الخالق والمخلوق والجنة، وقريب من جهنم.

روي أنه قتل شخص بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله في حال الحرب، وكانت تبكيه امرأة وتندبه وتقول: «واشهيداه».

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«وما يدريك أنه شهيد؟ فلعلّه كان يتكلم بمّا لا يعنيه، أوَ يبخل بمّا لا ينقصه»[3].

الأخبار في ذمّ البخيل كثيرة، وقد ثبت بالتجربة أن البخيل في أنظار الناس ذليل ومهان، وأن النظرة إلى وجهه تقبض القلب وتُظلِمُه. يكفي في ذمّ البخيل أن لا أحد يقبل البخيل صديقاً، والناس حتى أولاده هم أعداء له؛ وأهله وعياله ينتظرون دائماً ساعة موته، ويخلعون في عزائه ألبستهم البالية، ويقصون لأنفسهم ألبسة جديدة من الخز والديباج.

---

(١) أصول الكافي، ج٢، ص١٤٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) جامع السعادات، ج١٢، ص١١١.

قيل: «ذهبُ البخيل يخرج من التراب عندما يذهب هو إلى التراب».

ولا يذكر البخيل بعد الموت أحدٌ؛ لأنّه من لم يؤكل من خبزه حياً، لا يذكر ميتاً والبخيل المسكين مع وجود الاستطاعة لديه، تكون حياته في الدنيا كحياة الفقراء، ومحاسبته في العقبى مثل محاسبة الأغنياء. في الدنيا ذليل، وفي الآخرة عليل.

وضد البخل السخاء الذي هو من ثمار الزهد، ومن أشهر صفات أنبياء الله والأوصياء والأولياء، ومن معالي الأخلاق. صاحبه محبوب لدى أهل الآفاق، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«من جاد ساد»**[1].

إن فريدون[2] لم يكن ملكاً	ولم يكن بالعبير معجوناً
بالبرّ والجود نال مرتبةً	فجد وأحسن تكن فريدونا

وروي أنه أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى النبي موسى عليه السلام:

«لا تقتل السامري فإنه سخي».

إن فضيلة هذه الصفة ظاهرة وواضحة، وصاحبها محبوب[3]. السخي محبوب عند أهل الأرض والسماء، فاسم حاتم بالإحسان ما زال جارياً على الألسن.

اعلم أن أعلى مراتب السخاء الإيثار، وهي مرتبة رفيعة جداً لا يستطيع أي شخص تحصيلها. لقد كانت الطريقة المَرْضِيَّةُ لمنبع الوجود والإحسان، حضرةِ نبي آخر الزمان، وطريقة قائد أهل الإيمان بعده، أمير المؤمنين وأولاده الطاهرين عليهم السلام من الله الرحمن. إن قصص إيثار أولئك العظماء،

---

(١) الغرر والدرر «اللآمدي» فارسي، ج٧، ص٤٨.

(٢) فريدون: ملك من ملوك الفرس.

(٣) إحياء العلوم، ج٣، ص٣٤٦. نقل الغزالي هذه الرواية مرسلةً وبدون سند. جامع السعادات، ج٣، ص١١٧.

وبالخصوص إيثار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مسطورة في التواريخ والكتب. وآية ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾[1]، والآية الكريمة ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[2]، وسورة ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ شاهدة على ذلك. فمن الحسن أن يقتدي الشيعة بهم في هذه الطريقة المَرْضِيَّة.

إنَّ علاج مرض البخل هو ملاحظة الأخبار الواردة في ذمه، وفي فضيلة السخاء، والتأمل في ذل البخلاء ونفور الطباع منهم، والتفكر في فناء الأموال، وتقلب الأحوال، وكثرة آفات البخل ووباله. وبعد ذلك البذل والعطاء للفقراء، ومعرفة أن المال هو لأجل راحة العمر، وليس العمر من أجل إدارة شؤون المال. سئل أحد العقلاء: من هو السعيد ومن هو الشقي؟ قال: السعيد من أكل وزرع، والشقي من مات ووقع.

نصح موسى عليه السلام قارون كما في قوله تعالى على لسانه:

«أحسن كما أحسن الله إليك».

«سمعت عاقبة من لم يسمع، لم يصل إليه شيء ممّا يجمع».

قال العارفون: مات بالحسرة اثنان، واحد وجد ولم يأكل، وآخر علم ولم يعمل.

إذا عرفت قبح البخل وحسن السخاء فاعلم أن السخاء شامل لنوعين من العطاء والإنفاق.

الأول: الإنفاق الواجب مثل الزكاة والخمس ونفقة العيال ونحوها، وتفصيله موجود في الكتب الفقهية.

الثاني: الإنفاق المستحب وهو على عدّة أقسام:

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.

الأول: الصدقات المستحبة ذات الثواب العظيم والفوائد التي لا تحصى. ورد في الحديث أن داووا مرضاكم بالصدقة، وادفعوا البلاء بالدعاء واطلبوا الرزق بالصدقة. فالصدقة تخرج من بين وسوسة سبعمائة شيطان، يعني أن سبعمائة شيطان يوسوسون للمتصدق كي لا يعطي الصدقة.

وقد وردت أخبار كثيرة، أن تصدقوا ولا تردوا يد السائل خالية، وبالأخص إذا جاء ليلاً.

وقصص صدقات وإنفاق الأئمة عليهم أفضل الصلوات، وحملهم أكياس الطعام للفقراء والأرامل والأيتام مشهورة، وفي الكتب مسطورة.

تعريب شعر فارسي:

ليس الفن جمع الدنيا فاجمع إن استطعت القلوب

واعلم أنه قد وردت أحاديث كثيرة في فضيلة التصدق بالماء، ففي الخبر أن أول شيء يثاب عليه في الآخرة هو الماء[1].

وفي حديث آخر أن من أعطى الماء في مكان يوجد فيه ماء كان كمن أعتق عبداً، وفي المكان الذي لا يوجد فيه ماء مثل من أحيا نفساً، ومن أحيا نفساً كمن أحيا الناس جميعاً[2].

الثاني: الهدية، بأن يرسل الإنسان أو يعطي لأخيه المؤمن شيئاً. سواء كان فقيراً أم غنياً، لإظهار المحبة. وهي أمر مستحسن ومندوب إليه وباعث على إكرام الأخ المؤمن وإلى زوال الحقد.

الثالث: الضيافة التي ورد فيها أجر جزيل وثواب جميل، ففي الحديث النبوي عن الرسول ﷺ: **«لا خير فيمن لا يضيف»**[3].

---

(١) المحجة البيضاء، ج١، ص٢٩٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) جامع السعادات، ج٢، ص١٥١.

وفي خبر آخر:

«من أطعم مؤمناً حتى يشبعه، لم يدر أحد من خلق الله ما له من الأجر في الآخرة، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل إلاّ الله رب العالمين»[1].

ويجب أن يعلم أن الضيافة المرغوبة والمندوبة التي وصل فيها هذا الثواب، ليست هي الضيافة المتعارفة لدى أكثر أهل هذا الزمان، التي حيث يقوم غالباً أهل الدنيا بقصد الرياء والافتخار، بجمع عدد من الناس من أهل الدنيا حولهم لتمضية الوقت باللهو، والضحك، وغيبة المسلمين، ويرتكبون أنواع الإسراف. وإذا جاء فقير أو مسكين إلى بابهم سائلاً، يطردونه بقسوة. بل الضيافة المستحبة هي المقصود منها التقرب لله، والاقتداء بسنّة النبي ﷺ، ومواساة الإخوان خاصة الفقراء والصالحين، وإن كانت ضيافة الأغنياء ومطلق الناس فيها فضيلة أيضاً.

الأفضل أن لا ينسى المضيف أقاربه وجيرانه، ولا يكلف من يشقّ عليه الضيافة. والإسراع بتحضير الطعام للضيف، فالإسراع في هذا المرود ممدوح. وأن يحضر الطعام بقدر الكفاية. أداب الضيافة كثيرة، ذكرتها ملخصاً في كتاب آداب السنّن.

الرابع: الحق المعلوم وحق الحصاد: والحق المعلوم هو أن يأخذ الإنسان على نفسه أن يعطي كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر أو كل سنة من ماله للفقراء، أو أن يصل رحمه بغير ما هو واجب.

وحق الحصاد هو عبارة عن الكومة من المحصول أو القبضة من الزرع، أو الكف من القمح، أو التمر، أو سائر الفواكه، والمحاصيل التي يعطيها الإنسان إلى العمّال والفقراء الحاضرين عند الحصاد، أو عند إحصاء المحصول.

---

(١) أصول الكافي، ج٢، ص٢٠١.

الخامس: الإقراض الذي هو من ثمار السخاء، وفضله وثوابه لا نهاية له، فعن الإمام الصادق عليه السلام:

«مكتوب على باب الجنة: الصدقة بعشرة، والقرض بثمانية عشر»[1].

بل يستفاد من بعض الروايات أن: «**ما من مؤمن أقرض مؤمناً يلتمس به وجه الله، إلاّ حسب الله له أجره بحساب الصدقة حتى يرجع ماله إليه**». يعني أعطاه الله في كل آن أجر صدقة[2].

السادس: إمهال المقترض المعسر أو إحلاله. هذا العمل أيضاً فيه فضل كثير، بل هو من الواجبات.

السابع: إعانة المسلمين باللباس والسكن والرعاية وأمثال ذلك.

الثامن: ما يفعله الإنسان ولدفع شرّ الأشرار، ومنع الظلمة عن نفسه لحفظ شرفه.

التاسع: بناء المساجد، والمدارس، والجسور، والرباط، وإجراء القنوات، وزرع الأشجار، وأمثالها من الصدقات الجارية. ولكل واحد من هذه الأمور المذكورة ثواب عظيم.

٦ ـ الصفة السادسة: أكل المال الحرام والاجتناب عنه:

وهو من نتائج حب الدنيا والحرص، ومن أشد المهلكات وأعظم موانع الوصول للسعادات، وأكثر الناس محرومون من الفيوض الإلهية بسببه. نعم أين القلب النامي على لقمة الحرام، وأين قابلية أنوار عالم القدس. فيجب على كل طالب نجاة أن يهرب من المال الحرام، كما يفرّ من الأسد المفترس، والحية اللاسعة. لكن هيهات! وآه فأين الحلال في مثل هذا الزمان إلاّ في ماء المطر

(١) المحجة البيضاء، ج١، ص٢٩٢.

(٢) جامع السعادات، ج٢، ص١٥٩.

وعلف الصحراء. وما نراه جميعه هو يد عدوان وحرام قد أفسدته المعاملات الفاسدة، بل الظاهر أن حال أكثر الأزمنة كذلك؛ لهذا قال الصادق عليه السلام: **«المؤمن يأكل في الدنيا بمنزلة المضطر»**[١].

إنَّ طالب النجاة يجب أن لا ييأس من تحصيل الحلال، ولا يلوث يده وبطنه بكل طعام.

واعلم أن الأموال الحرام لا تخرج عن ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون حراماً بذاته، مثل الكلب والخنزير والدم وغيره.

الثاني: أن يكون حراماً لعارض، مثل الطعام المسموم والمتنجس وغيره.

الثالث: أن يكون ذلك بسبب نقص أو خلل ظهر فيه. وأنواعه كثيرة مثل الأموال المأخوذة ظلماً، وعدواناً، وغصباً، وسرقة، وخيانة، ومكراً واحتيالاً، ونقصاً في المكيال، ورشوةً، ورباً، وغير ذلك ممّا فصل في كتب الفقه؛ وورد فيه ذم شديد، وليس هنا مقام ذكره.

وضد هذه الصفة اجتناب المال الحرام: الذي هو أحد معاني الورع. ومعناه الثاني هو حفظ النفس من مطلق المعاصي. والتقوى قريبة من الورع في المعنى[٢]، والورع من فضائل الصفات وأساس السعادة. فعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال لجابر:

«... فوالله ما شيعتنا إلاّ من اتقى الله وأطاعه... فاتقوا الله واعملوا لما عند الله. ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحب العباد إلى الله عزَّ وجلَّ وأكرمهم عليه أتقاهم وأعملهم بطاعته...»[٣].

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

---

(١) جامع السعادات، ج٢، ص١٦٨.

(٢) في جامع السعادات الظاهر أن التقوى مرادفة للورع (ج٢، ص١٧٤)، وفي كتاب معراج السعادة، ص٣١٧. والتقوى والورع لهما معنىً واحد.

(٣) أصول الكافي، ج٢، ص٧٤.

«من أكل الحلال أربعين يوماً، نور الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[1].

وروي أنه طلب منه ﷺ بعض الصحابة أن يجعله الله مستجاب الدعوة فقال له ﷺ:

«أطب طعمتك تستجب دعوتك»[2].

واعلم أن مداخل الحلال لا تخرج عن خمسة أقسام، ليس المقام لذكرها وتفصيلها إنَّ طالب السعادة يجب أن يتخذ لنفسه حرفة وعملاً ليؤمن معاشه منه، أو أن يكون لديه موردٌ أو رأس مال يعمل فيه شخص آخر، ويؤمنه منه. وقد وردت أخبار كثيرة في تحصيل المال من الكسب الحلال. في الحديث النبوي عن رسول الله ﷺ:

«طلب الحلال فريضة على كل مسلم ومسلمة»[3].

وروي أيضاً أن:

«العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال»[4].

ولا يخفى أن بعض الناس الذين ليس لديهم رأس مال، ويتغافلون عن تعلم صنعة ومكتسب، أو يتوانون بعد التعلم عن تحصيل المعاش من الوجه الحلال؛ ويحتاجون لأن يأخذوا ممّا كسبه الآخرون ليصرفوه على أنفسهم. هؤلاء يختارون غالباً إحدى حرفتين خسيستين، تسمى إحداهما اللصوصية أي السرقة، والأخرى الاستعطاء. وكل واحدة من هذين النوعين لها أصناف مختلفة.

---

(١) جامع السعادات، ج٢، ص١٧٨.
(٢) جامع السعادات، ج٢، ص١٧٨.
(٣) إحياء العلوم، ج٢، ص٨٩. جامع السعادات، ج٢، ص١٧٧.
(٤) جامع السعادات، ج٢، ص١٧٧.

أما النوع الأول: فالبعض منه قطاع طرق، وبعض آخر يدخلون البيوت بأنواع الأساليب كالنقب والحبال وأمثال ذلك ويسرقونها، وبعض يتوسلون بالسلاطين، والوزراء، والحكام، ويجعلون ملازمة كبار القوم وسيلة للتعدي، ولظلم الرعية، وأكل مالهم.

وأما النوع الثاني: وهو الاستعطاء فهو أيضاً له أصناف كثيرة، فالبعض يظهرون أنفسهم عمياً، أو أشلاّء، أو مرضى، أو يمددون طفلاً على الطريق كالميت. وبعض يجعلون شعارهم البكاء والنحيب. وطائفة منهم يستعملون الإصرار والتأكيد أسلوباً لهم، وأخرى تزين سوق استعطائها بكلام غريب، وأعمال عجيبة. كما يقوم البعض بالسخرية، والتقليد، والكلام المضحك، والبعض بالترحيب، والتملق، والإطراء، وبعض بالشعبذة. وطائفة بسرد القصص والدروشة، وجمع باللعب بالأفاعي والعقارب والنفخ لها. وطائفة بقراءة الأشعار الموضوعة أو الكلام المسجع بصوت حسن. وبعض آخر بالرياء، والتظاهر بالهيام وحمل السبحة ذات الحبّات الكبيرة، أو ذات الألف حبة واللباس الصوفي والذكر. ويسمي البعض أنفسهم بالطبيب، أو الجراح، أو الكحّال. وقسم يجمع حوله الزجاجات والأعشاب غير المفيدة. وبعض يخدع النساء غير العاقلات بالمعاجين المغشوشة. ونوع آخر منهم يدعون أنهم دهّانون أو منجمون، ويكشفون الحظ والطلاسم، وأنهم يكتبون الأدعية ويفسرون المنام. وغير هؤلاء من الطوائف الأخرى التي لا حدّ لها ولا حصر. وكل منهم اتخذ لنفسه وسيلة لأكل مال الناس، فيقضون حياتهم في نوع من الاستعطاء غافلين عن المبدأ والمعاد، وذاهلين عن غرض الخلق والإيجاد.

٧ ـ الصفة السابعة: الخيانة والغدر في مال الناس:

من مصاديق هذه الصفة الخبيثة أكل مال الناس، وحبس أموالهم بدون عذر شرعي، والبخس في المكيال والغش والتدليس وغيرها. لا شك في قبح وخبث هذه الصفة التي يحكم بقبحها حتى الملحدون ومنكرو الشريعة.

وضدها الأمانة والصدق اللذان هما من أشرف الصفات الموجبة لعزة الدارين. ولم يبعث الله نبياً إلاّ بالصدق، وأداء الأمانة للبر والفاجر. فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده، فإن ذلك شيء اعتاده فلو تركه استوحش لذلك، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته»[1].

وقد ثبت بالتجربة أن الخائن فقير وشقي مدى الدهر، وأن الأمين غني.

٨ ـ الصفة الثامنة: الخوض في الباطل:

المراد منه حكاية قصص المعاصي والفجور، مثل حكاية أفعال النساء الفاحشات، ومجالس الشراب، وأفعال أهل الفسق والفجور، وأمثال ذلك ممّا لا حدّ له ولا عدّ. قليل من الكلام ما لا ينتهي بواحد منها، فلا خلاص منها إلاّ بالاكتفاء بقدر الضرورة من الكلام.

٩ ـ الصفة التاسعة: التكلم بما لا يعني وبالفضول:

وهو الكلام غير المفيد لا للدنيا ولا للآخرة، وهو إنَّ لم يكن حراماً لكن آثاره خبيثة. يكفي في ذمه أنه يضيع الأوقات التي هي رأس مال للتجارة. بل كثيراً ما يؤدي إلى التحدث بالمعاصي، والكذب، والغيبة وأمثالها. لقد ورد ذم كثير في هذه الصفة، وقد ذكر في ذمها في مبحث صفة البخل حديث يدّل دلالة تامة على شدة قبحها إنَّ أقسام الكلام غير المفيد كثيرة، ضابطه التحدث بالكلام الذي لا يؤدّي إلى ضرر ديني أو دنيوي، ولا يعطل عليك أمرك. فكل ما كان من هذا القبيل هو لغو وفضول، مثل قصص الأسفار والأشياء التي نراها، والتعريف بالمدن والفواكه والطقس وأحوال الناس وأمثال ذلك ممّا نحن غالباً مبتلون به.

---

(١) أصول الكافي، ج٢، ص١٠٥. جامع السعادات، ج٢، ص١٨٢، يتفاوت قليل.

فيا عزيزي إن وقت تهيئة زاد سفر العقبى أضيق من الفرصة التي لدينا نحن المسافرين لحمله، فكيف بالجلوس فارغاً في مكان ما، وبالتحدث بالكلام غير المفيد.

تعريب شعر فارسي:

يا ليتهم قيمة أنفاسهم علموا وعدة أنفاس باقية غنموا

واعلم أنه كما يكون الكلام غير المفيد قبيحاً وموجباً للخسران الأبدي، كذلك تكون الأسئلة غير المفيدة مذمومة أيضاً، بل قبحها أكثر ومفسدتها أشد. كما إذا رأيت شخصاً ماراً فتسأله من أي تأتي؟ أو إلى أين تذهب؟ أو تسأل شخصاً. هل أنت صائم؟ أو هل تصلي صلاة الليل؟ وأمثال ذلك. وكثيراً ما يحدث أن لا يريد ذلك الشخص ـ لأمر ما ـ إظهار ما عنده، فإما أن يكذب، أو يقوم بالتورية، أو يسكت، فتكون قد تسببت، بالمعصية، أو إزعاجه، أو إهانته! ومن هذا القبيل السؤال عن المرض والضعف، وأسوأ من الجميع أن يبيّن عند المريض شدة مرضه. فجميع ذلك فضلاً عن كونه لغواً، هو باعث على الإيذاء والمعصية وكسر الخاطر. سبب هذا النوع من الكلام إمّا الحرص على معرفة الأشياء غير المفيدة، أو حسن المشرب حتى يميل الناس لمكالمته، أو تمضيته الوقت ومرور النهار والليل، وجميع هذا هو من دناءة القوة الشهوية، واتباع الأهواء النفسانية.

وعلاجها بعد التأمل في قبحها وفي حسن السكوت، وتذكر الموت والمحاسبة عليها؛ هو أن يجتنب الناس مهما أمكن، وأن يجبر نفسه على السكوت حتى عن الأشياء ذات الفائدة القليلة، ليعتاد لسانه، ولا يتكلم بلا تأمل.

تعريب شعر فارسي:

تأمل كل خطأ أو صواب من اللاغين في فور الجواب

كل نقص المرء في الكلام لا تذم النفس بقول غير تام

فلا تنظر قليل القول في خجل غدير المسك أفضل من كومة فلّ

وضدها السكوت، وترك الكلام غير المفيد، ففضيلته عظيمة وفوائده لا تحصى. ذكروا أنه قيل للقمان: ما حكمتك؟ قال:

«لا أسأل عمّا كفيت، ولا أتكلف ما لا يعنيني»[١].

وروي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال:

«إنمّا شيعتنا الخرس»[٢].

وسيأتي ذكر هذا المقام أكثر تفصيلاً في آخر الصفة الثامنة عشر من المقام التالي، إن شاء الله.

---

(١) جامع السعادات، ج٢، ص١٩٠.

(٢) أصول الكافي، ج٢، ص١١٣.

المقام الخامس

في بيان الصفات المتعلقة بالقوى الثلاث العاقلة والغضبية والشهوية، أو بقوتين منها من الرذائل والفضائل، وهي عدّة صفات:

١ ـ الصفة الأولى: الحسد:

وهو عبارة عن تمنّي زوال النعمة التي فيها صلاح الأخ المسلم، وإن لم يكن فيها صلاح يسمى الغيرة، وإذا لم يتمنى الزوال بل أراد مثلها لنفسه سميّ غبطة ومنافسة.

الحسد أشد الأمراض النفسانية، ولا عقبة في الطريق أصعب منه؛ فصاحبه يوقع نفسه في عذاب الدنيا وعقاب العقبى. الحسود المسكين لا يخلو لحظة من الغمّ والألم، لأنه يتألم كلما رأى نعمة لدى أحد، ونعمة الله بحسب قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[١] لا حد لها ولا نهاية.

تعريب شعر فارسي:

الحسود في غم عيش الخلق الجميل

يغص دوماً بمُرِّ ماءٍ وبيل

(١) سورة ابراهيم، الآية: ٣٤.

ولا يصل إلى المحسود من ألم الحسود شيء أبداً، بل يزداد ثوابه وحسناته، ويصير الوزر والوبال حملاً على عاتق الحاسد، لأن الحسود بخيل بنعمة الحق (تعالى)، ويعادي عبده بلا ذنب. بل إذا لاحظناه بدقة، نجد أنه يعاند ويضادّ ربَّ العباد، ويرى الله ـ العياذ بالله ـ جاهلاً، أو يرى نفسه أعلم بالمصالح والمفاسد، وهذان الأمران كلاهما كفر. لهذا السبب وردت آيات وأخبار كثيرة في ذم هذه الصفة، فقد نقل عن الرسول ﷺ أنه قال:

«الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[1].

وقال ﷺ:

«إن لنعم الله أعداء. فقيل: ومن هم؟ قال الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله»[2].

وقال الإمام الصادق عليه السلام:

«آفة الدين الحسد والعجب والفخر»[3].

وقال عليه السلام:

«الحاسد مضر بنفسه قبل أن يضر المحسود، كإبليس أورث بحسده لنفسه اللعنة ولآدم الاجتباء والهدى والرفع إلى محل حقائق العهد والاصطفاء، فكن محسوداً ولا تكن حاسداً، فإن ميزان الحاسد أبداً خفيف بثقل ميزان المحسود، والرزق مقسوم، فماذا ينفع الحسد الحاسد، وماذا يضر المحسود الحسد. والحسد أصله من عمى القلب والجحود بفضل الله تعالى وهما جناحان للكفر»[4].

قال بعض عظماء الدين: لا يعود الحسود من المجالس والمجامع إلاّ

---

(١) جامع السعادات، ج٢، ص١٩٤. في الكافي، ج٢، ص٣٠٦: «إن الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب».

(٢) إحياء علوم الدين، ج٣، ص١٨٨.

(٣) أصول الكافي، ج٢، ص٣٠٧.

(٤) جامع السعادات، ج٢، ص١٩٥.

بالذم والذل، ولا يصل إليه من الملائكة إلاّ البغض واللعنة، ولا ينال من الخلق نفعاً إلاّ الغم والألم، ولا يرى عند الموت إلاّ الهول والشدّة، ولا ينال يوم القيامة شيئاً إلاّ العذاب والفضيحة[1].

وعن الرسول ﷺ أنه قال:

«أقل الناس لذة الحسود»[2].

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«الحسود لا يسود»[3]،

وهناك مثل مشهور: «كفى بالحسود حسدُه».

يكفي الحسود في العالم الحسد ... في غمّ وهمّ وبلاء وكبد

إن أشعل الحسود ناراً لغيره ... أنظر تراه لاهباً في حرّه

اصبر على حسد الحسود فإن صبرك قاتله

كالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

إنَّ اعلم أن للحسد مراتب، وأقبحها ميله لزوال نعمة المحسود، وإن لم يصل إليه نفع من زوالها. سبب الحسد إما خبث النفس ورذالة الطبع، أو العداوة، أو حب الشهرة، أو التكبر والعجب ومرجع الجميع إلى حب الدنيا الدنية. وأكثر أسباب الحسد توجد بين أشخاص من أهل بلدٍ واحد، ولديهم روابط وأغراضهم واحدة. لهذا السبب يحسد كل صنف صنفه. والحسد لا يكون غالباً فيما بين الأشخاص الذين تبعد مدنهم عن بعضهم البعض. وهو عند أهل العلم بين علماء الدنيا، الذين غرضهم من العلم طلب المال، والجاه، وقرب الأمير والسلطان. فالمال جماد عندما يصل

(١) إحياء علوم الدين، ج٣، ص١٨٩.

(٢) سفينة البحار، ج١ كلمة الحسد.

(٣) الغرر والدرر الآمدي، ج٧، ص٦٧.

إلى يد شخصٍ تخلو منه يد شخص آخر؛ لهذا السبب يحصل الحسد بينهم. أمَّا كثرة العلماء فلا تؤدي إلى قلة علم العلماء الآخرين، بل تؤدي من جهات كثيرة إلى زيادة اللذة والبهجة.

إذا علمت خبث هذه الصفة، فاعمل على معالجتها الآن، وعالجها بمعجون العلم والعمل:

أما العلم النافع لهذا المرض فهو أن تتأمل في البداية في عدم ثبات هذه الدنيا العارية، واعلم أن أيام الدنيا القليلة هذه لا قابلية فيها لتحسد عباد الله بسببها.

لا قدر للدنيا يوازيه الحسد ... تغتم عبثاً لما يكون ويفتقد

فاصبر لتمضي معدودة الأيام ... لن يبقى يا أخي من محتسد

ما أن تطرف عينك حتى يكون المحسود والحسود كلاهما في التراب متحللين، وقد محي اسمهما من صفحة الدهر، وارتهنوا لأعمالهم في ذلك العالم.

واعلم بعد ذلك أن حسدك يضر بدينك ودنياك ونافع للمحسود في الدنيا والآخرة، ولا يضرّه مطلقاً. فالشخص الحسود هو في الواقع عدو نفسه وصديق المحسود، ولو لم يكن كذلك لما حسد.

أما العمل النافع لشفاء مرض الحسد، فهو طلب الخير للمحسود، والتصميم على فعل خلاف مقتضى الحسد. بالتواضع له، ومدحه في المجالس، والثناء عليه، وتلزم نفسك على لطف الكلام معه، والتبسم له. فإذا واظبت على ذلك يصير ملكة لك وينقطع الحسد عنك. وهذا علاج عام للحسد، ولكل نوع منه أيضاً علاج خاص، وهو قطع سببه من حب الرئاسة، والكبر، والحرص، وخبث النفس، وأمثال ذلك.

وضد الحسد النصيحة التي هي طلب الخير للآخرين، وهي من معالي الصفات، وكل طالب خير وصلاح للمسلمين يكون شريكاً معه في كل خير يصل إليهم.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة له في المشهد والمغيب»[1].

وغاية النصيحة وطلب الخير هي أن تحب لأخوتك في الدين ما تحب لنفسك.

٢ ـ الصفة الثانية: الإهانة والتحقير لعباد الله:

لا شك في حرمة هذه الصفة، وأنها موجبة لهلاك صاحبها، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

قال الله: «من أهان لي ولياً فقد أرصد لمحاربتي»[2].

ويوجد بهذا المضمون أخبار كثيرة، ومن أدرك النسبة بين الله وعباده، يعلم أن إهانة العبد إهانة لمولاه وتحقير المخلوق تحقير للخالق، وهذا القدر كافٍ في ذم هذا العمل.

ضد هذه الصفة التعظيم والاحترام لعباد الله، ففي الحديث القدسي: **«ليأمن غضبي من أكرم عبدي المؤمن»**[3].

ولقد ثبت بالتجربة أن من ينظر إلى الناس بعين يراه الناس بتلك العين.

إذن! الأفضل إكرام وإعزاز جميع طبقات الناس بقدر ما يستحقون. ويجب تخصيص أهل العلم والفضل وأصحاب الورع والتقوى، وشيوخ وشيَبة أهل الإسلام، وسلالة السادات الجليلة بزيادة التعظيم والتكريم. وقد وردت الأحاديث في فضيلة إكرام كل من هؤلاء.

---

(١) جامع السعادات، ج٢، ص٢١٣.

(٢) جامع السعادات، ج٢، ص٢١٥.

(٣) جامع السعادات، ، ص٢١٧.

٣ ـ الصفة الثالثة: الظلم:

وهو عبارة عن الأضرار والأذى بغير جهة شرعية، وسببه إن كان العداوة والحقد فهو من نتائج القوة الغضبية، وإذا كان الحرص والطمع في المال فهو من نتائج القوة الشهوية. وهو بإجماع طوائف العالم قبيح وأعظم المعاصي. ولقد لعن الظالمون في مواضع كثيرة من القرآن، وذم الظلم في الأخبار الكثيرة ذمّا عظيماً، وورد التهديد عليه. والظالم يستحق اللعن، الشديد الدائم والمستمر؛ لأن روحه ملوّثة.

وفي الخبر:

«جور ساعة في حكم أشد وأعظم عند الله من معاصي تسعين سنة»[١].

ومن يخاف عقاب الظلم يمتنع عنه بالطبع، فالمنتقم الحقيقي ينتقم لكل ظلم، ويجازي الظالم بظلمه[٢].

«يا من تمسك بزمام اختيار الناس لا تؤذ المساكين، فلا يعاقبك الواحد الفرد».

من هذه الجهة كان السلطان «محمود غزنوي» يقول: «أنا لا أخاف من رماح الأبطال كما أخاف من مغزل العجائز». واعلم أنك تحصد ما زرعت، وأنك لا تقطف من البذرة المرّة فاكهة حلوة. واعلم أيضاً أنه كما أن الظلم مذموم، وفاعله ملوم في الدنيا والآخرة، كذلك إعانة الظالم والرضى بالظلم. قال الإمام الصادق عليه السلام: **«العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء ثلاثتهم»**[٣].

وروي أيضاً عن جعفر بن محمد عن آبائه عليهم السلام قال: **قال**

(١) جامع السعادات، ج٢، ص٢٢١.
(٢) جامع السعادات، ج٢، ص٢٢٠.
(٣) أصول الكافي، ج٢، ص٣٣٣.

رسول الله ﷺ: **«إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ أين أعوان الظلمة ومن لاق لهم دواة أو ربط لهم كيساً أو مدّ لهم مدة قلم فاَحشروهم معهم»**[1].

وقد وردت أحاديث كثيرة في باب إعانة الظلمة، يكفي هنا الحديث الوارد عن أبي عبد الله عليه السلام في صحيحة يونس بن يعقوب.

قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام:

«لا تعنهم على بناء مسجد»[2].

وضد الظلم العدل بالمعنى الأخص، الذي هو منع النفس عن ظلم العباد. ودفع الظلم عنهم بقدر الإمكان. شرف هذه الصفة خارج عن حيز الوصف وقد أمر بالعدل ومدح ورغب به في الآيات والأخبار الكثيرة، فعدالة ساعة خير من عبادة سبعين سنة[3].

إنَّ فوائد العدل أكثر من أن تذكر في هذا المختصر، وقد ظهر بالتجربة والعيان أن هذه الطريقة المرضية هي سبب تحصيل محبة القريب والبعيد، والشهرة في الأطراف والأكناف. فقد مرَّ ما يزيد عن ألف وثلاثمائة سنة على دفن أنوشيروان، العادل في التراب، ولسان الناس يتزين باسمه. وقد قطع حد الأجل عمر آلاف الملوك، ولا زالت سلسلة عدله مربوطة على القبة المستديرة[4].

٤ ـ الصفة الرابعة: ترك إعانة المسلمين:

إذا كان الحسد منشأ هذه الصفة. فهو من رذائل القوة الغضبية، وإن كان هو الكسل أو البخل أو ضعف النفس فهو من نتائج القوة الشهوية. هذه

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٧، ص٤٢.

(٢) وسائل الشيعة، ج١٧، ص٤٢.

(٣) جامع السعادات، ج٢، ص٢٢٣.

(٤) إنّ عدالة أنوشيروان محل إنكار، فقد يكون تظاهر بالعدل وسمي به مسامحةً.

الصفة من المهلكات وعلامات ضعف الإيمان، والأحاديث الواردة في ذمها كثيرة. فعن رسول الله ﷺ أنه قال:

«من لم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»[1].

وورد عن الصادق عليه السلام:

«أيما مؤمن منع مؤمناً شيئاً ممّا يحتاج إليه وهو يقدر عليه من عنده أو من عند غيره، أقامه الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة مسوداً وجهه، مزرقة عيناه، مغلولة يداه إلى عنقه. فيقال: هذا الخائن الذي خان الله ورسوله. ثم يؤمر به إلى النار»[2].

وضدها الاهتمام بقضاء حوائج المسلمين والسعي في تأمين حاجاتهم، وهو من الصفات الشريفة، ولا شك أن أفضل القربات هي السعي في قضاء وتأمين الحاجات. في الحديث عن رسول الله ﷺ: **«من قضى لأخيه حاجة، فكأنما عبد الله دهره»**[3].

لا شك أن قضاء الحاجات موجب للسرور، وثواب مسرّة الأخ المؤمن يزيد عن حد الوصف، فإسعاد قلب أفضل من بناء بلد. إن القلوب المنكسرة الحزينة هي بيوت الله الطاهرة، فترميمها بالفرح هو ترميم بيت الله. عن الإمام الصادق عليه السلام: **«من أدخل السرور على مؤمن فقد أدخله على رسول الله ﷺ ومن أدخله على رسول الله ﷺ فقد وصل ذلك إلى الله وكذلك من أدخل عليه كرباً»**[4].

وفي رواية عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال:

---

(١) أصول الكافي، ج٢، ص١٦٣.
(٢) جامع السعادات، ج٢، ص٢٢٨.
(٣) جامع السعادات، ج٢، ص٢٣٠.
(٤) أصول الكافي، ج٢، ص١٩٢.

«من أحب الأعمال إلى الله عزَّ وجلَّ إدخال السرور على المؤمن، إشباع جوعته أو تنفيس كربته أو قضاء دينه»[1].

وورد في روايات معتبرة عن أبي عبد الله عليه السلام أيضاً أنه قال: «**من أدخل على مؤمن سروراً خلق الله عزَّ وجلَّ من ذلك السرور خلقاً فيلقاه عند موته فيقول له: ابشر يا ولي الله بكرامة من الله ورضوان...**»[2].

لا يخفى أنه كما وردت الأخبار في فضيلة هذه الصفة، وردت أيضاً في معصية وعذاب إيذاء المؤمنين. من يفرح لغم عباد الله خبيث النفس نجس الطينة. هناك كثير من أصحاب الطينة النجسة مبتلون بهذه الصفة، يسعون دائماً لنقل الأخبار المحزنة إلى الناس. فإذا سمعوا خبراً محزناً لشخص ما لا يقر لهم قرار حتى يوصلوا إليه هذا الخبر!

تعريب شعر فارسي:

الكلب ذو شرف فوق الذي   يسعى بين الناس كي يؤذي

٥ ـ الصفة الخامسة: التقصير والتواني في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

سببه إمّا ضعف النفس، أو الطمع المالي، وهو من جملة المهلكات، وضرره عام وفساده تام. وقد ذكر ذمه بكثرة في الأخبار والآيات، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله:

«ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل، إلاّ يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده»[3].

وروي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

---

(١) أصول الكافي، ج٢، ص١٩٢.

(٢) أصول الكافي، ج٢، ص١٩١.

(٣) إحياء علوم الدين، ج٢، ص٣٠٨. جامع السعادات، ج٢، ص٢٣٣.

«أوحى الله إلى شعيب النبي عليه السلام إني معذب من قومك مائة ألف، أربعين ألفاً من شرارهم وستين ألفاً من خيارهم، فقال عليه السلام: يا رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار، فأوحى الله عزَّ وجلَّ إليه داهنوا أهل المعاصي ولم يغضبوا لغضبي»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لأصحابه:

«إنه قد حق لي أن آخذ البريء منكم بالسقيم، وكيف لا يحق لي ذلك وأنتم يبلغكم عن الرجل منكم القبيح فلا تنكرون عليه ولا تهجرون، ولا تؤذونه حتى يترك»[2].

وقد وردت أخبار كثيرة في منع الحضور في مجالس المعصية، إذا لم يكن النهي عن المعصية مستطاعاً[3].

إذا كان هذا حال التهاون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكيف بمفسدة وعقاب الأمر بالمعصية والنهي عن الطاعة. إنَّ كل من يتأمل في الأخبار، ويتعرف على تواريخ وقصص السابقين، والبلاء والعقاب الذي حل بهم؛ ونظر إلى عصرنا وما يحدث فيه بعد شيوع المعاصي، من ابتلاء الناس ببعض الآفات السماوية والأرضية، يتيقن أن كل عقوبةٍ سماوية أو أرضية من الطاعون، والوباء، والقحط، والغلاء، وقلة المياه، وانقطاع المطر، وجفاف الأشجار، وتسلط الظالمين والأشرار، والقتل والسرقة، والزلازل، وأمثالها هي بسبب ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ضد هذه الصفة السعي والاجتهاد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو أعظم شعائر الدين، والغاية العامة من بعثة الأنبياء والأوصياء وأولياء الدين. ولقد وردت آيات وأخبار كثيرة في مدحها والترغيب بها.

---

(١) جامع السعادات، ج٢، ص٢٣٥.
(٢) وسائل الشيعة، ج١٦، ص١٤٦.
(٣) وسائل الشيعة، ج١٦، ص١٤٥.

روي عن رسول الله ﷺ: **«ما أعمال البر عند الجهاد في سبيل الله إلاّ كنفثةٍ في بحر لجي، وما جميع أعمال البر والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثةٍ في بحر لجي»**[1].

إنَّ ما يستفاد من الآيات والأخبار هو أن الأمر بالواجب والنهي عن الحرام واجب على كل فرد من أفراد المكلفين، أما الأمر بالمستحبات والنهي عن المكروهات فليس واجباً بل هو سُنّة.

لوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أربعة شروط:

الأول: أن يكون لدى الشخص الآمر والناهي علم بأن الفعل واجب أو حرام، لا أن يكون مشتبهاً عليه.

الثاني: أن يحتمل التأثير في التارك للواجب أو الفاعل الحرام.

الثالث: أن لا يتضمن مفسدة أو ضرراً له أو لأحدٍ من المسلمين.

الرابع: أن لا يظهر على التارك للواجب أو الفاعل للحرام آثار الندم والتوبة.

ومن الأمور اللازمة في هذا المقام العلم بصدور المنكر منه. ولا يلزم التجسس بمحض الاحتمال أو المظنة، بل يجب أن لا يسعى، لتفحص حاله.

اعلم أن الأفضل لصاحب هذه الصفة أن يكون حسن الخلق صبوراً، حليماً وقوي النفس. ويجب أن لا يكون لديه طمع بأحد، ومن مريدي الخير للناس والرحماء بهم. وأن يكون لديه معرفة باختلاف أخلاق الناس؛ لكي يتعامل مع كل شخص بالشكل المناسب؛ وأن يكون مراقباً وعارفاً بمكر النفس الأمارة، وكيد الشيطان. وأن يخلص نيته لله، ويطلب العون والمساعدة منه.

واعلم أيضاً أن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عدة مراتب:

---

(١) إحياء علوم الدين، ج٢، ص٣٠٨. جامع السعادات، ج٢، ص٢٣٨.

١ ـ الإنكار القلبي[١].

٢ ـ الإرشاد والهداية.

٣ ـ إظهار الكراهة والنفور من العاصي، وتجنبه.

٤ ـ المنع باللسان والنصيحة، وإن لم يكن مفيداً بالتهديد، فإن لم يتم فبغليظ القول، وإلاّ فبالسبِّ بلفظ الجاهل والأحمق وأمثالها.

٥ ـ منعه من المعصية قهراً وعنوةً بكسر آلات اللهو واللعب، وإراقة الشراب والخمر ونحو ذلك.

٦ ـ بالضرب باليد والرجل دون أن يؤدي إلى قتل أو جراحة.

٧ ـ برفع السيف والجرح والقتل، وهذه المرتبة موقوفة عند أكثر العلماء على إذن الإمام عليه السلام. وتفصيل هذا المقام من وظائف الكتب الفقهية، ذكرنا إشارة إليه هنا والله العالم.

٦ ـ الصفة السادسة: الابتعاد عن المؤمنين ومعاداتهم:

وهي نتيجة الغضب والحقد أو البخل والحسد، وهي من الأفعال الذميمة. قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أيما مسلمين تهاجرا فمكثا ثلاثاً لا يصطلحان إلاّ كانا خارجين من الإسلام ولم يكن بينهما ولاية، فأيهما سبق إلى كلام أخيه كان السابق إلى الجنة يوم الحساب»[٢].

وقال الإمام الباقر عليه السلام:

---

(١) هو إظهار النفور بدون أن يظهر أثره على وجهه، لأن إظهار الكراهة والنفور من المرتبة الثالثة. وكون الكراهة القلبية دون الآثار الخارجية من مراتب الأمر بالمعروف أو لوازم الإيمان محل بحث.

(٢) أصول الكافي، ج٢، ص٣٤٥.

«.... فرحم الله امرءاً ألف بين وليّين لنا، يا معشر المؤمنين تآلفوا وتعاطفوا»[1].

ضد هذه الصفة الخبيثة المعاشرة والإلفة التي هي من الأوصاف الجميلة، ولا حدّ لثوابها. وقد وردت أحاديث كثيرة في فضيلة زيارة المؤمنين، والسلام عليهم، ومصافحتهم[2].

والسر في هذا التأكيد هو دفع مساوىء العداوة، وحصول الألفة والمحبة التي هي أعظم أسباب إصلاح أمر الدنيا والآخرة. هذه الحكمة ملحوظة في التأكيد على الضيافة، وعيادة المريض، وتشييع الجنازة، وتعزية أهل المصيبة وأمثالها. ومن يلاحظ الأخبار الواردة في بابها يعلم مقدار اهتمام الباريء ـ عزَّ وجلَّ ـ بالألفة والمحبة بين عباده. وكم شرع من السنن السنيّة، لحفظ هذه الصفة. لكن آه، آه! ففي هذا الزمان صارت أكثر هذه السنن متروكةً، وشاعت طريقة الجاهلية بين الناس، ولم يبق من آثار النبوّة إلاّ رسم ومن الشريعة إلاّ اسم. وقد وجد بعض الشياطين الطريق لتحقيق أغراضهم الفاسدة في هذا اليوم من دنياهم، في بثّ الشقاق والعداوة بين العباد، ورمي كل ما اهتم به الرب ـ عزَّ وجلَّ ـ وراء ظهورهم. فلا يتزاورون إلاّ للرياء، والأغراض الفاسدة، والنيّات الباطلة. يرون السلام من علامات الذل، والمصافحة شيمة البلهاء!.

٧ ـ الصفة السابعة: قطع الرحم:

وسببها العداوة أو البخل. وهو بإجماع العلماء من جملة المحرمات العظيمة، وموجب لعذاب الآخرة وبلاء الدنيا الدنية. المستفاد من الأخبار والتجربة أن هذه الصفة موجبة للفقر والهمّ وقصر العمر[3]. ويكفي في ذمها

---

(١) أصول الكافي، ج٢، ص٣٤٥.
(٢) أصول الكافي، ج٢، ص١٧٥ ـ ١٧٩. جامع السعادات، ج٢، ص٢٥٢ ـ ٢٥٦.
(٣) أصول الكافي، ج٢، ص١٥٠ ـ ١٥٧.

أن الحق ـ تعالى ـ لعن قاطع الرحم في القرآن المجيد[1]. في الحديث النبوي أنه ﷺ قال: **«أبغض الأعمال إلى الله الشرك بالله، ثم قطيعة الرحم، ثم الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف»**[2].

وري عن الإمام الباقر عليه السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام كتب في كتاب له: **«ثلاث خصال لا يموت صاحبهن أبداً حتى يرى وبالهن: البغي، وقطيعة الرحم، واليمين الكاذبة يبارز الله بها، وإن أعجل الطاعات ثواباً لصلة الرحم...»**[3].

وضدها صلة الرحم: التي هي واجبة بالاتفاق، وهي أفضل الطاعات وأعظم العبادات، جاء التأكيد الشديد عليها في الآيات والأخبار، وروي عن النبي ﷺ:

«من سرّه النساء في الأجل والزيارة في الرزق، فليصل رحمه»[4].

وعن الصادق عليه السلام:

«صلة الرحم تهوّن الحساب يوم القيامة، وهي منسأة في العمر وتقي مصارع السوء...»[5].

وقد وردت أحاديث كثيرة بهذا المضمون، وثبت بالمعاينة أيضاً أن صلة الرحم توجب زيادة العمر وسعة الرزق وزيادة المال.

اعلم أن المراد بالرحم كل قريب نسبي معروف بالقرابة، وإن كانت النسبة بعيدة جداً. وقطع الرحم الحرام هو أن تؤذيه بالقول أو الفعل، كأن تقول

(١) ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ الرعد/ ٢٥.

(٢) جامع السعادات، ج٢، ص٢٥٧.

(٣) جامع السعادات، ج٢، ص٢٥٧.

(٤) إحياء علوم الدين، ج٢، ص٢١٥.

(٥) أصول الكافي، ج٢، ص١٥٧. جامع السعادات، ج٢، ص٢٥٠.

له سوءاً يكسر قلبه، أو تعامله معاملة سيئة. أو أن يكون محتاجاً ومضطراً للسكن أو الطعام أو اللباس ونحوه، فتضيق عليه مع القدرة، أو تقصّر في دفع ظلم الظالم عنه، وتتجنبه حسداً أو حقداً، وعدم زيارته عند قدومه من السفر، وعدم عيادته إذا كان مريضاً، وعدم تعزيته إذا نزلت به مصيبة، وأمثال ذلك.

وصلة الرحم ضدها: كأن تمتنع عن القول والعمل السيء نسبة له، وتعينه بالمال واليد واللسان، وزيارته والسؤال عن أحواله.

٨ ـ الصفة الثامنة: عقوق الوالدين:

هي عبارة عن إغضاب وأذى وكسر خاطر الأب والأم أو أحدهما. وهو من أشد أنواع قطع الرحم ومن المعاصي الكبيرة. فالمسكين من كان عاقاً لأبيه وأمه، لا يرى خيراً في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يتمتع بالعمر ولا بالكرامة. تدل جميع الأخبار الواردة في ذم قطع الرحم على ذم هذه الصفة إضافة، إلى الآيات والأخبار الواردة في ذمها بالخصوص، يقول الحق تعالى:

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[١].

في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**إياكم وعقوق الوالدين، فإن ريح الجنة توجد من مسيرة ألف عام ولا يجدها عاق، ولا قاطع رحم...**»[٢].

وفي الحديث القدسي أن الحق تعالى قال:

«**بعزتي وجلالي وارتفاع مكاني! لو أن العاق لوالديه يعمل بأعمال الأنبياء جميعاً لم أقبلها منه**»[٣].

---

(١) الإسراء، الآية: ٢٣.

(٢) جامع السعادات، ج٢، ص٢٦١. إحياء علوم الدين، ج٢، ص٢١٦.

(٣) جامع السعادات، ج٢، ص٢٦٣.

ونقل عن الإمام محمد الباقر عليه السلام:

«إن أبي عليه السلام نظر إلى رجل ومعه ابنه والابن متكىء على ذراع الأب، فما كلمه أبي مقتاً له حتى فارق الدنيا»[1].

إضافة إلى الآيات والأخبار الكثيرة الواردة في ذم هذه الصفة، فقد ثبت بالتجربة والعيان أن كل من أساء للأب والأم أو أحدهما يقصر عمره، وتمر حياته بمرارةً، ويهجم عليه الفقر والهم. وتشتد عليه سكرات الموت، ويصعب عليه نزع الروح.

فيا أيها العزيز! كن يقظاً، وارحم نفسك، واحذر عقوق الوالدين واذكر طول شقائهما في تربيتك، سهرهما لكي تنام، وجوعهما من أجل شبعك. حملاك سنيناً طوالاً في حضن عطفهما، وربياك بعصارة الروح، فيا قليل المروءة! بعد أن وجدت في نفسك بعض القوة نسيت كل ذلك[2].

ضد العقوق البر والإحسان: وهو من أشرف السعادات، وأفضل القربات، وقد جاء الترغيب الكثير به في الآيات والأخبار. في الحديث النبوي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«بر الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله»[3].

سئل الإمام الصادق عليه السلام: أي الأعمال أفضل فقال: **«الصلاة لوقتها وبر الوالدين والجهاد في سبيل الله عزَّ وجلَّ»**[4].

---

(١) جامع السعادات، ج٢، ص٢٦٢.

(٢) اعلم أن عقوق الوالدين لا يختص بحالة حياتهما كما أن الإحسان إليهما لا اختصاص له بمال الحياة.

(٣) إحياء العلوم، ج٢، ص٢١٦. جامع السعادات، ج٢، ص٢٦٤.

(٤) أصول الكافي، ج٢، ص١٥٨.

فالمؤمن الجدير هو الذي يهتم غاية الاهتمام بإكرام وتعظيم الوالدين، ولم يقصر في خدمتها، وإذا كانا مضطرين لشيء ما يعطيهما إياه قبل أن يظهرا ذلك، ولا يقول لهما أف، ولا يعبس بوجههما، ولا يرفع صوته فوق صوتهما، ولا يسير أمامهما، بل لا يجلس عندهما مهما أمكن. وبقدر ما يبالغ في التذلل والتواضع لهما، يكون أجره وفائدة دنياه وآخرته أكثر.

ولا يخفى أن حق الأخ الأكبر على الأخ الأصغر عظيم أيضاً، وعلى أهل الإيمان الانتباه لذلك. ففي الحديث النبوي عنه ﷺ:

«حق كبير الأخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده»[1].

اعلم أنه كما أن للوالدين عليك حقاً لجيرانك عليك حق أيضاً، يسمّونه حق الجوار. وفي بعض الروايات عن رسول الله ﷺ أنه كتب بين المهاجرين والأنصار، ومن لحق بهم من أهل يثرب **«أن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وحرمة الجار على الجار كحرمة أمه»**[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«حسن الجوار زيادة في الأعمار وعمارة في الديار»[3].

وقال عليه السلام:

«ليس منا من لم يحسن مجاورة مجاوره»[4].

لا تظننّ أن حق الجار هو أن لا تؤذيه فقط، فهذا حق لجميع الناس، ولا يختص بالجار. بل يجب إضافة إلى ذلك أن ترحمه، ولا تتأخر عن إحسانك إليه، ولا تمنع عنه ما هو محتاج إليه وأنت تملكه، مثل لوازم البيت وغيره، كالأواني، والمطرقة، والملح، والنار، وغيرها. بل يجب أن ترى أنه شريك

---

(١) إحياء علوم الدين، ج٢، ص٢١٩.
(٢) جامع السعادات، ج٢، ص٢٦٨.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.

في مالك، وتشاركه في فرحه وحزنه، وتستر عيبه، ولا تمنع من نزول ميزابه في بيتك، ومن رمي كناسته على باب منزلك؛ وتحفظ عينك عن أهله وعياله، وتعطف على أولاده، وترشده إلى صلاح دينه ودنياه، وإذا صنعت طعاماً لذيذاً ترسل إليه منه، وإلاّ أخفيته حتى لا يراه أطفاله، وأمثال ذلك ممّا لا حدّ له.

يجب في معرفة الجار الرجوع للعرف، وفي بعض الأخبار أن الجار على مسافة أربعين بيتاً من الأطراف الأربعة.

٩ ـ الصفة التاسعة: تتبع عيوب الناس:

وهي من علامات خباثة النفس، ودناءة الطبع وسوءِه. فكل معيب يحب إظهار عيوب الناس «فالناقص ينظر إلى العيب»، وعن أبي عبد الله عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«من أذاع فاحشة كان كمبتدئها ومن عير مؤمناً بشيء لم يمت حتى يركبه»[١].

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«إن أسرع الخير ثواباً البر، وأسرع الشر عقوبة البغي، وكفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمى عنه، وأن يعير الناس بما لا يستطيع تركه، وأن يؤذي جليسه بما لا يعنيه»**[٢].

وروي في خبر آخر عن أبي عبد الله عليه السلام:

«أقرب ما يكون العبد إلى الكفر أن يؤاخي الرجل على الدين فيحصي عليه عثراته وزلاته ليعنفه بها يوماً ما»[٣].

الأحمق هو من تلوث بألف عيب، وغرق من رأسه حتى قدميه بالمعصية، ويغمض عينه عنها، ويطلق لسانه بعيوب الآخرين! ولو لم يكن لديه

(١) أصول الكافي، ج٢، ص٣٥٦.
(٢) جامع السعادات، ج٢، ص٢٧١.
(٣) أصول الكافي، ج٢، ص٣٥٤.

أي عيب لكان تتبع العيوب أكبر العيوب، وهو يخبر الناس عن خبث باطنه. إذن يجب أن يرى عيبه أولاً ثم ينظر إلى الآخرين.

ولقد ثبت بالتجربة أن كل من تتبع عيوب الناس وفضحهم فقد الثقة به.

ضد هذه الصفة الخبيثة ستر العيوب، الذي ورد الثواب الكثير له، وأن الله عزَّ وجلَّ يستر عيوبه في الدنيا والآخرة.

ويكفي في حسن هذه الصفة أنها إحدى صفات الخالق تعالى. ومن شدة الاهتمام الإلهي في ستر عيوب العباد، أنه جعل ثبوت أسوأ الفواحش الذي هو الزنا بحيث يكون من النادر اتفاقه.

فيا أخي العزيز! اشتغل بإصلاح نفسك، وتأمل كيف تكون حالك إذا ذكر شخص عيباً لك عند الناس، وقس حال الآخرين على حالك. فارحم نفسك واقتدِ بخالقك، واعم عينك، وأصم أذنك، وأخرس لسانك عن عيوب الناس.

١٠ ـ الصفة العاشرة: إفشاء الأسرار:

وهو أعم من إظهار العيوب، ومذموم عند العقل والشرع، ويعد من الخيانة.

وضده حفظ السر، وهو من الأفعال المحمودة، ونتيجة قوة النفس، وهو مشتمل على فوائد كثيرة لا تخفى على العاقل.

فالسر الذي تريد أن تخفيه لا تطلع عليه أحداً وإن كان صديقاً مخلصاً، فذاك الصديق لديه أصدقاء كثر وهكذا كالسلسلة. قال العقلاء: «كل سر جاوز الاثنين شاع، لا مصلحة في خروج السر من الغطاء».

١١ ـ الصفة الحادية عشر: النميمة:

أي نقل الكلام بالقول، أو الكتابة، أو الرمز، أو الإشارة، وهي من أرذل الصفات الخبيثة. عن قول النبي ﷺ: أن النمام لا يدخل الجنة. أنه ويستفاد

ذلك من كلام الله عزَّ وجلَّ[1]. وهو بعيد عن رحمة الله، وأن ثلث عذاب القبر هو بسبب هذه الصفة. وكل من عرف حقيقة هذه الصفة الخبيثة يعلم أن النمام أسوأ الناس، وأخبثهم. ولقد ذكرت آفاتها الكثيرة في الكتب المفصلة، وقصص مفاسد النمام مشهورة. وما أجمل ما قال سعدي:

الحرب كالنار تسعر بين شخصين — والنمام مسكين يجمع الحطب

صفا قلب ذا وذاك كاملاً — وهو حزين خجل بما كسب

من أوقد بين اثنين ناراً — كان بلا عقل يصطلي اللهب

على العاقل أن لا يرتب أثراً على كلام النمام، لأن النمام فاسق، وخبر الفاسق مردود. بل ينهاه ويعتبره عدواً.

نقل أن شخصاً ذهب لزيارة أحد الحكماء، ونقل كلاماً عن الغير عنده، قال له الحكيم: لقد عاديتني مع أخي وشغلت قلبي الفارغ، واتهمت نفسك، وقد كنت أميناً عندي.

أسوأ أنواع النميمة السعاية، أي النميمة عند من يخاف منه الضرر والأذى والقتل، مثل السلاطين والحكام والرؤساء.

١٢ ـ الصفة الثانية عشر: الإفساد:

وهو أعم من النميمة وهو من الأوصاف الخبيثة، وصاحبه يقف في مقام المعاداة لله والرسول. فكثير من القواعد الشرعية المقررة من حضور صلاة الجمعة، والجماعة، والمصافحة، والزيارة، والضيافة، والنهي عن سوء الظن، والغيبة، جميعها من أجل حصول المحبة والإلفة بين الناس. وهذا الخبيث السيء يعمل على الفساد المخالف للغرض الإلهي، ولا شك أن شخصاً كهذا هو من أرذل الناس ومستحق لأنواع اللعن.

---

(١) سورة القلم، ١١ ـ ١٢ ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ .

وضده الإصلاح بين الناس: الذي هو من علائم شرف النفس. ففي الحديث النبوي عنه ﷺ:

«أفضل الصدقة إصلاح ذات البين»[1].

ويكفي في فضيلة هذه الصفة والاهتمام بها، أن صفة الكذب التي هي من أسوأ الأوصاف حسنة في هذا المقام.

١٣ ـ الصفة الثالثة عشر: الشماتة:

التي منشؤها غالباً العداوة، والحسد، والجهل بمواقع القضاء والقدر. وهي أن يقول الإنسان أن ذاك البلاء أو تلك المصيبة التي أصابت ذاك شخصاً ما مثلاً هي بسبب سيئاته، ويفرح ويسرّ بها أيضاً. ولقد ظهر بالتجربة وثبت بالأخبار أن الشامت لا يذهب من الدنيا، حتى يبتلى هو نفسه بذلك البلاء، ويشمت به الآخرون.

ليس كل بلاء ومصيبة بسبب قبح الأعمال، بل هو موجب للتقرب ورفع الدرجة، وكفارة المعاصي.

١٤ ـ الصفة الرابعة عشر: المراء والجدال:

وهو عبارة عن الاعتراض على كلام الغير، وإظهار نقصه، وخلله بقصد تحقير ذلك الشخص، وإظهار الذكاء بدون فائدة أخروية. وهو من الأخلاق المذمومة، سواء كان في المسائل العلمية أو غيرها، حقاً كان أم باطلاً؛ إلاّ إذا كان متعلقاً بالمسائل الدينية، وكان الغرض إفهام، أو فهم الحق فلا ضرر في هذه الصورة، ولا يسمى مراءً، بل إرشاد وهداية. وعلامته أن لا يكون لديك ضيق من أن يظهر الحق من غيرك، بخلاف المراء بحيث تتأذى إذا ظهر الحق من الغير، وتريد أن يكون ما تقوله صحيحاً.

---

(١) جامع السعادات، ج٢، ص٢٨٠.

هذه الصفة الخبيثة تبعث على الحقد والحسد، وهيجان الغضب. في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يكمل إيمان العبد حتى يترك المراء وإن كان محقاً»**[1].

ولا شك أن هذه الصفة المذمومة إذا قويت، يصل الأمر بصاحبها إلى أن يكون مثل الكلب المفترس، يرغب دائماً بالنزاع مع كل من يراه. ويسعى دائماً ليسمع كلاماً من شخص ما ليتدخل، ويتصرف فيه، ويتتبعه، ويلتذ بذلك. خصوصاً في المجتمع الذي يكون فيه بعض ضعفاء العقول، الذين يمدحون هذا الشخص بسبب هذه الصفة الخبيثة، ويقولون: إن فلاناً جدلي محترف، أو متكلم بلا قرين. ولا يستطيع أحد أن يفحمه، فيفرح ذاك الأحمق بذلك، غافلاً عن خبائثه الباطنية. وغالباً ما يميل إلى أن يكون طرف مباحثته جاهلاً لكي يغلبه! والمسكين لا يعلم أن من يجادل مع من أجهل منه؛ ليقال بأنه عالم هو جاهل.

الخصومة التي هي اللجاج في الكلام من أجل استيفاء مطلبه ومقصوده، مذمومة أيضاً. والأخبار الواردة في قبحها كثيرة. يكفي في هذا المقام الحديث النبوي عنه ﷺ:

«ما أتاني جبرئيل عليه السلام قط إلاّ وعظني فآخر قوله لي إياك ومشاحنة الناس فإنها تكشف العورة وتذهب بالعز»[2].

وقال ﷺ:

«إن أبغض الرجال إلى الله الألدّ الخصم»[3].

ولا يخفى أن الخصومة لإثبات حق مالي، أو حق ثابت آخر مستحق

---

(١) إحياء علوم الدين، ج٣، ص١١٦. جامع السعادات، ج٢، ص٢٨٢. وسائل الشيعة، ج٨ كتاب الحج أبواب أحكام العشرة الباب ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٢) أصول الكافي، ج٢، ص٣٠٢.

(٣) جامع السعادات، ج٢، ص٢٨٥. إحياء علوم الدين، ج٣، ص١١٨.

له شرعاً، ليست مذموماً. بل الخصومة المذمومة هي ما كانت في طلب شيء باطل وبغير حق أو لم يتيقن بأحقيته استحقاقه له.

١٥ ـ الصفة الخامسة عشر: السخرية والاستهزاء:

وهو الإخبار عن عمل، وقول، وأوصاف الناس؛ بالقول، أو الفعل، أو الإشارة والكناية بوجهٍ يكون سبباً لضحك الآخرين.

وسببه العداوة أو التكبر، أو تحقير الشخص المستهزأ به. وكثيراً ما يكون الباعث عليه مجرد إضحاك وتفريح بعض أهل الدنيا، طمعاً بأوساخهم الدنيوية. ولا شك أن هذا العمل هو شيمة الأراذل وذوي الفطرة الدنيئة. إنَّ صاحب هذا العمل لا يعرف شيئاً عن الدين والإيمان، ولا أثر لديه من الإنسانية. فطبعه الدنيء يدفعه ليقوم ببعض الحركات بوجهه، ويده، ورجله، ليضحك به بعض الأدنين الأراذل، ويقلد عيوب ونقص المسلمين، ويجعل أفعال الصالحين والأخيار مضحكة الأشقياء والأشرار. هذا الشخص هو البتة بعيد بمراحل كثيرة عن منزل الإنسانية، وفاقد لاسم الآدمية. وهو في نظر العقلاء وأرباب العلم بلا قيمة ولا اعتبار، ومعذب في دار العقبى بأنواع العذاب. يكفي في ذمه أنه جعل هذه الصفة الخبيثة وسيلة لتحصيل أوساخ أيدي الناس، وكأنه لا يعتقد أن المتكفل برزق العباد هو خالقهم! ولا تحتاج شدة شدة رذالة هذه الصفة إلى بيان.

١٦ ـ الصفة السادسة عشر: الإفراط في المزاح:

وهي تكسب الخفة، وقلة الوقار، وموجبة لسقوط المهابة، وتميت القلب، وتوجب الغفلة عن الآخرة. وكثيراً ما تسبب العداوة والبغضاء، أو تسبب الأذى والخجل لمؤمن ما. ولهذا قيل أن لكل شيء بذر وبذر العداوة المزاح. ومن مفاسده أنه يتسبب بالضحك العبثي، وكثرة الضحك تظلم القلب، وتذهب بماء الوجه والوقار. لكن لا يخفى أنه ما لم يفرط في المزاح، ولم يكن سبباً للمفاسد المذكورة، لا يكون مذموماً بل هو ممدوح.

لقد صدر المزاح مراراً من الرسول ﷺ، وأمير المؤمنين عليه السلام حتى عاب المنافقون على الأمير عليه السلام مزاحه.

الضحك المذموم هو القهقهة التي تكون مع الصوت، لا التبسم الذي هو محمود، وذكره في أوصاف الرسول ﷺ مشهور[١].

١٧ ـ الصفة السابعة عشر: الغيبة:

التي هي عبارة عن قول شيء في غياب شخص معين، بحيث يتأذى إذا سمعه ولا يرضى به؛ بشرط أن يرى الناس ذلك الشيء نقصاً، وأن يكون موجوداً فيه وأن يذكر بقصد النقص فيه. سواءً كان ما قيل نقصاً في البدن، أو في النسب، أو في الصفات، أو في أفعاله، وأقواله، أو في الأشياء المتعلقة به والمنسوبة إليه، في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**»، قيل له أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته**»[٢].

ولا فرق بين الغيبة بالكناية أو التصريح، بل كثيراً ما تكون الكناية أسوأ. ومستمع الغيبة أيضاً في حكم المغتاب.

اعلم أن الغيبة أعظم المهلكات، وحرمتها ثابتة بإجماع جميع الأمم وصريح الكتاب والسنّة. يستفاد من الأحاديث الكثيرة أن الغيبة أشد من الزنا[٣]. وهي تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب[٤]. وأنه كذب من ظن أنه من حلال وهو يأكل لحم الناس بالغيبة[٥]، وأن الشيطان شريك في نطفة من

---

(١) جامع السعادات، ج٢، ص٢٩٠ ـ ٢٩٣.

(٢) إحياء علوم الدين، ج٣، ص١٤٤.

(٣) الوسائل، ج٨، ص٥٩٨ ـ ٦٠١. إحياء علوم الدين، ج٣، ص١٤١؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا».

(٤) جامع السعادات، ج٢، ص٣٠٥.

(٥) وسائل، ج٨، ص٦٠٠.

يغتاب بدون عداوة بينه وبين أخيه المؤمن الذي يغتابه[1]. والحق تعالى لا يقبل صلاة وصوم المغتاب أربعين يوماً[2]. وأنه إذا قبلت توبته فهو آخر من يدخل الجنة، وإلاّ كان أول من يدخل إلى جهنم[3]. الأحاديث في ذم هذه الصفة الخبيثة التي هي فاكهة غالب المجالس أكثر من الحد.

وعلاجها الرجوع إلى الآيات والأخبار التي وردت في هذا الباب، ثم التفكر في مفاسدها الدنيوية، وبعد ذلك يتأمل في الأذى الذي سيصيبه عندما يغتابه أحد. فمقتضى شرف النفس هو أن لا تحب للغير ما لاتحب لنفسك. وبعد ذلك انتبه للسانك، وتأمل في كلامك.

عمدة العلاج هو السعي في قطع أساس ومنشأ الغيبة الذي هو غالباً الغضب، أو العداوة، أو الحسد، أو محض المزاح والملاطفة، أو قصد السخرية والاستهزاء، أو الفخر والمباهاة وأمثالها.

فيا أخي الحبيب لا تذكر عيوب الآخرين ما استطعت، ولا تغفل عن عيبك. فإذا أردت ذكر عيوب الآخرين، فاذكر عيبك أولاً، واعمل على إصلاحه. فكم يقبح من الإنسان أن يكون غافلاً عن عيوبه، ويعمل على إظهار عيوب الناس. يرى الشوكة في عيون الآخرين، ولا يرى الغصن في عينه.

اعلم أن أعظم مفاسد الغيبة أن تكتب أعمال المستغيب في كتاب المغتاب، وتنقل معاصيه إلى سجل المستغيب. فالأحمق الذي يتحمل يوم القيامة وزر شخص آخر بسبب كلمة واحدة، ويرى طاعاته في كفة ميزان أعماله.

---

(١) جامع السعادات، ج٢، ص٣٠٥.

(٢) جامع السعادات، ج٢، ص٣٠٤.

(٣) جامع السعادات، ج٢، ص٣٠٣.

واعلم أن الغيبة جوزت في عدة مقامات:

١ ـ في الاستغاثة والتظلم، بشرط أن يكتفي في شكايته في خصوص الظلم الحاصل عليه، ولا يطلق لسانه بإظهار عيب آخر للظالم.

٢ ـ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣ ـ في النصيحة، إذا استشارك شخص في خصوص معاملة، أو شركة، أو رفقة شخص آخر.

٤ ـ في إرشاد مؤمن، ونصيحته عند مرافقته لفاسق.

٥ ـ في إظهار عيوب المريض الخفية عند الطبيب.

٦ ـ في تجريح وتعديل الشاهد والراوي.

٧ ـ في لقب المشهور بذلك اللقب الذي يدل على عيبه، لكن في صورة ما لم يكن كارهاً، وعدم إمكان إسماعه بعبارة أخرى.

٨ ـ في مجال من هتك جلباب الحياء، والمتجاهر بالفسق، لكن في خصوص هذا الفسق الظاهر.

٩ ـ في إظهار عيب العالم، أو الحاكم الشرعي الذي ليس لديه أهلية الفتوى والحكم وتصدى لهما، أو كانا مخالفين للحق.

١٠ ـ في الشهادة.

١١ ـ في الغيبة لغير معينٍ بحيث لا يفهم أحد.

اعلم أن الكفارة الأولى للغيبة هي التوبة، وبعد ذلك الاستحلال ممّن استغابه، إذا كانَ حياً ويستطيع الوصول إليه، أو سمع غيبته. وكذلك لو لم يسمع، ولكن لم يكن في إظهاره مظنّة الفساد والعداوة. ولو كان فيه مظنة فساد، أو لم يمكن الوصول إليه، يستغفر له، ويعمل له الأعمال الصالحة، لتكون يوم القيامة عوضاً عن غيبته.

ضد الغيبة المدح، وهو صفة جيدة ومرغوبة وباعثة على حصول المحبة والودّ والإلفة، وموجبة لإدخال السرور إلى قلب المؤمن، وثوابه كثير. فقد روي أن جمعاً مدحوا بعض الموتى فقال رسول الله ﷺ:

«وجبت لكم الجنة، وأنتم شهداء في الأرض»[1].

ولكن لا يخفى أنه ليس كل مدح ممدوحاً، ولا كل حمد مرغوب. بل الحسن منه هو ما كان صدقاً وليس نفاقاً، ورياءً، ومدحاً للظلمة والفاسقين، وموجباً للعجب والتكبر. فإذا كان متضمناً لأحدها فهو مذموم. والأخبار التي وردت في ذم المدح محمولة على هذا.

١٨ ـ الصفة الثامنة عشر: الكذب:

وهو من المعاصي الكبيرة بل أقبح المعاصي. وهو صفة تجعل المرء ذليلا حقيراً، وسبب للمهانة والخجل وسواد الوجه في الدنيا والآخرة. الآيات والأخبار في ذم وخبث هذه الصفة كثيرة ففي الحديث النبوي عنه ﷺ:

«المؤمن إذا كذب من غير عذر لعنه سبعون ألف ملك، وخرج من قبله نتن حتى يبلغ العرش، فيلعنه حملة العرش، وكتب الله عليه بتلك الكذبة سبعين زنية، أهونها كمن زنى مع أمه»[2].

ويستفاد من الأخبار الأخرى أن المؤمن لا يكون كذّاباً. ولا يجد العبد طعم الإيمان حتى يترك الكذب[3]. والكذب يقطع الرزق[4]. وهو أسوأ من الخمر، في حال أن مفتاح المعاصي هو الخمر. وعن الإمام

---

(١) جامع السعادات، ج٢، ص٣١٦.
(٢) جامع السعادات، ج٢، ص٣٢٢.
(٣) وسائل الشيعة، ج٨، ص٥٧٣.
(٤) جامع السعادات، ج٢، ص٣٢٢.

العسكري عليه السلام: وعن الباقر عليه السلام قال: **«إن الله عزَّ وجلَّ جعل للشر أقفالاً، وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب والكذب شر من الشراب»**[1].

واعلم أن أسوأ أنواع الكذب هو الكذب على الله ورسوله، ويكفي في قبحِه أنه مبطل للصوم. الأخبار في حرمة وخبث الكذب كثيرة، لكنه يجوز في عدة مقامات:

١ ـ في دفع المفسدة.

٢ ـ في الإصلاح.

٣ ـ في الجهاد والحرب.

٤ ـ عند عدم قدرة الزوج على تأمين طلب زوجته، أو كان قادراً عليه ولكنه ليس واجباً، فيعِد كذباً أنه سيأتي به، أو أن يقول لكل من زوجاته المتعددة أنه يحبها أكثر في حال أن الواقع ليس كذلك.

وكذلك في ترغيب وتهديد الطفل لمصلحة ما، ولكن الأفضل في هذه المقامات التورية[2].

ولا يخفى أن هناك أكاذيب كثيرة؛ يقع فيها الناس ويتسهلونها، وهم غافلون عن مفاسدها. ومن جملتها قول الشخص: لا أشتهي الطعام، بدون غرض شرعي، عندما يعرض عليه الطعام. في حال أنه جائع ويشتهيه. وكذلك إشهاد الله على أمر خلاف الواقع. والقسم الكاذب، وشهادة الزور. والكذب على الله، مثل ذكر بعض فقرات الصلاة والأدعية والمناجاة مثل قول: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض»، وقول: «إياك نعبد وإياك نستعين» ونحو ذلك، في وقت لا يكون القلب ملتفتاً إلى هذه الأمور، ومشغولاً بالشارع، والسوق، والدكان، وألف فكرة لا فائدة فيها.

---

(١) أصول الكافي، ج٢، ص٣٣٨. عن الإمام الباقر عليه السلام.

(٢) التورية هي كلام يحتمل معنيين أحدهما صدق مقصود والآخر كذب غير مقصود ولكن يفهمه السامع.

تعريب شعر فارسي:

لـك ألـف مـعـبـود مـطـاعٍ أمـره دون الإلـه وتـدعـي الـتـوحـيـدا

اعلم أن أمثال هذه الأكاذيب كثيرة، وبالأخص في الأدعية، أكثر الناس يقعون بها. ألاّ ترى البعض في أسحار شهر رمضان المبارك، يقرؤون دعاء أبي حمزة وهم مشغولون بشرب الدخان والقهوة، والكلام مع الأصحاب والضحك، فيقرؤون مسرعين هذا الدعاء الشريف، الذي من جملة فقراته **«أبكي لضيق لحدي أبكي لظلمة قبري»**.

فيا عزيزي! إياك والكذب، وتوجه حال الصلاة والدعاء والمناجاة إلى قاضي الحاجات، وانظر مع من تتكلم، وإلى من تبثّ أسرار القلب. فلو كنت تكلم مخلوقاً، فكيف يكون توجهك إليه؟ ومعاملتك مع الله (والعياذ بالله) ليست حتى بقدر معاملة مخلوق ذليل. فهل هذا إلاّ الجهل والغفلة؟!

يقول السيد الأجل علي بن طاووس رضي الله عنه، في كتاب الإقبال في عمل شهر رمضان: إياك أن تقرأ تلك الفقرة من دعاء هذا الشهر التي تتضمن طلب الحج والعمرة، وأنت غير راغب بالحج إلى مكة، فقول هذه الكلمات في هذه الحال كذب، وشبيه بالسخرية، والاستهزاء!

إيـاك مـن قـولٍ بـه تـفـنـد فـأنـت عـبـد وهـواك تـعـبـد
تـلـهـج فـي إيـاك تـسـتـعـيـن وأنـت غـيـر الله تـسـتـعـيـن

إذا عرفت حرمة الكذب فيجب أن تجتنبه وتحمي نفسك منه. وطريقة الخلاص منه هي أن تتأمل دائماً بالآيات والأخبار الواردة في ذمه، وأن تعلم أن الكذب سبب للهلاك الأبدي. وعلة للسقوط وموجب للذل والهوان. يكفي في ذل الكاذب ما جاء في الحديث، أن الحق تعالى يجعله نسيّاً. وقد ثبت هذا الأمر بالتجربة، حتى أن المشهور في أمثال العجم أن الكذاب لا يحفظ.

واعلم أيضاً أن الكذب يسلب الثقة وموجب لعدم الاطمئنان. وهو

يشبه ضربة السيف إذا التأم جرحها بقي أثرها، مثل أخوة يوسف النبي عليه السلام الذين وصموا بالكذب ولم يعد أبوهم يثق بكلامهم. قال تعالى:

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[1].

فإذا لم تكن عدوّ نفسك، فتأمل أولاً في كل كلام تريد أن تقوله، لكي لا يكون فيه كذب. واجتنب مجالسة الفساق، والكذابين، حتى يصير الصدق ملكة لك.

وضد الكذب الصدق الذي هو أشرف الصفات، ورئيس الأخلاق الملكية. قال الحق تعالى:

﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[2].

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

«ما يزال العبد يصدق حتى يكتبه الله صديقاً»[3].

والآيات والأخبار في فضيلة الصدق كثيرة. ويكفي في فضيلته مضادته للكذب.

فائـــدة:

ظهر من البيان السابق في ذكر وتعداد الأخلاق، أن كثيراً من الآفات من الغيبة، والبهتان، والكذب، والشماتة، والسخرية، والجدال، والمراء، والمزاح، والتكلم بالفضول، والفحش، وغيرها هي من مفاسد اللسان؛ وأن إضرار هذا العضو بالإنسان أكثر من سائر الأعضاء، وأنه أفضل الآلات

---

(١) يوسف، الآيتان: ١٨ و٨٣.

(٢) التوبة، الآية: ١١٩.

(٣) أصول الكافي، ج٢، ص٣٣٨.

للشيطان لإضلال بني نوع الإنسان، فهو عضو فسيح الميدان وسيع المجال. كل من أطلق له العنان، ألقاه الشيطان في وادي الهلاك؛ لهذا السبب جاء في حديث رسول الله ﷺ:

«أكبر ما يدخل الناس النار الأجوفان: الفم، والفرج»[1].

وروي عنه ﷺ أيضاً:

«من وقي شر قبقبه، وذبذبه، ولقلقه، فقد وقي»، أي بطنه وفرجه ولسانه[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«ما من يوم إلاّ وكل عضو من أعضاء الجسد يكفر اللسان، ويقول: نشدتك بالله أن نعذب فيك»[3].

وفي رواية أخرى عن الرسول ﷺ:

«إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تكفر اللسان، فتقول: إتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اجوججت اجوججنا»[4].

نعم إن أكثر المحن الدنيوية، والمفاسد الدينية منشؤها اللسان.

وضد جميع آفات اللسان السكوت، وصاحبه بنظر جميع الناس عزيز ومحترم، وهو زينة العالم وحجاب الجاهل.

والسكوت درّ من درر الحكمة، وموجب لجمع الخواطر، ودوام الوقار والهيبة، والفراغ لأجل الذكر، والسلامة في الدنيا والآخرة.

---

(١) إحياء علوم الدين، ج٣، ص١٠٩. جامع السعادات، ص٣٤٢.
(٢) إحياء علوم الدين، ج٣، ص١٠٩. جامع السعادات، ج٢، ص٣٤٢.
(٣) أصول الكافي، ج٢، ص١١٤.
(٤) إحياء علوم الدين، ج١٣، ص١٠٨ ـ ١٠٩. جامع السعادات، ج٢، ص٣٤٤.

يقول رسول الله ﷺ:

«من صمت نجا»[1].

وقال ﷺ أيضاً:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليسكت»[2].

وعن النبي عيسى عليه السلام:

«العبادة عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت، وجزء في الفرار من الناس»[3].

عن أبي عبد الله عليه السلام، قال قال لقمان لابنه:

«يا بني إن كنت زعمت أن الكلام من فضة، فالسكوت من ذهب»[4].

وعن الإمام الباقر عليه السلام:

«إنما شيعتنا الخرس»[5].

ونقل عن بعض الصحابة أنه كان يضع الحصى في فمه، حتى لا يتكلم بدون اختياره.

يعلم ممّا ذكر أن السكوت مع سهولته هو أنفع الأمور للإنسان، فيا أيها العزيز! تعود ما استطعت على السكوت، ولا تغفل عن فوائده. واعلم أن الجاهل ليس بالسكوت، فإذا عرفت صحة ذلك فلست بجاهل!

١٩ ـ الصفة التاسعة عشر: في حب الجاه والشهرة:

الذي هو أعمُّ من حب المال، وحقيقتها الرغبة في تسخير قلوب

---

(١) إحياء علوم الدين، ج٣، ص١٠٨ ـ ١٠٩. جامع السعادات، ج٢، ص٣٤٤.
(٢) إحياء علوم الدين، ج٣، ص١١٠. جامع السعادات، ج٢، ص٣٤٤ ـ ٣٤٦.
(٣) إحياء علوم الدين، ج٣، ص١١٠. جامع السعادات، ج٢، ص٣٤٤ ـ ٣٤٦.
(٤) أصول الكافي، ج٢، ص١١٤.
(٥) أصول الكافي، ج٢، ص١١٣.

الناس. وهو من المهلكات العظيمة، والآيات والأخبار الواردة في ذمه لا تحصى. وفي الخبر عن رسول الله ﷺ: **«ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم، بأكثر فساداً من حب الجاه والمال في دين الرجل المسلم»**(١).

وورد أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام: **«ما ذئبان ضاريان في غنم قد فارقها رعاؤها، أحدهما في أولها، والآخر في آخرها. بأفسد فيها من حب المال والشرف في دين المسلم»**(٢).

وفي رواية أخرى قال رسول الله ﷺ:

«حسب امرىءٍ من الشر، أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه! إلاّ من عصمه الله»(٣).

وقد ورد إضافة إلى هذه الأخبار، أخبار كثيرة أخرى تفيد أنه من الظاهر لكل ذي شعور أن حب الرئاسة مورث لكثير من المفاسد العظيمة، ومنتج لخسارات دنيوية وأخروية. وأن طالب المنصب والجاه ليس طالباً إلاّ لبلاء الدنيا والآخرة. وأكثر العداوات، ومخالفة الأنبياء، والأوصياء منذ زمان آدم عليه السلام حتى هذه اللحظة، لم يكن لها سبب إلاّ حب الجاه.

من مفاسد هذه الصفة الخبيثة أن صاحبها يعمل دائماً على مراعاة جانب الخَلْق، ويبرز أعماله وأفعاله رياءً أمام الناس باستمرار. ويهتم ليلاً ونهاراً بالعمل، ليزيد منزلته عند عدة من الأراذل. لهذا السبب كان أكثر الأكابر والأعاظم يفرون من الجاه والرئاسة. لكن يجب أن يعلم أنه ليس كل أقسام الرئاسة بهذه المثابة، بل بعض أقسامها محبوب، وتفصيله في غير هذا المختصر.

---

(١) جامع السعادات، ج٢، ص٣٥٠.
(٢) أصول الكافي، ج٢، ص٣١٥.
(٣) إحياء العلوم، ج٣، ص٢٧٧.

وعلاجه بعد التأمل في الآيات والأخبار وكثرة آفاته هو التفكر في الفائدة من الجاه والرئاسة هي إلى وقت الموت، وبعده ستزول. وظاهر أن الشيء الذي ستذروه رياح الفناء بعد مدة قليلة، لا يفرح به العاقل. فتأمل في تلك الحال التي ستكون فيها ستكون كالأشخاص الذين كانوا قبلك منذ خمسين سنة، وتحلق على بابهم الشعراء والعظماء طاعة لهم، ونفذ الرعايا والمرؤوسون أوامرهم، ولا يوجد الآن أثر منهم. ولا تسمع عنهم إلاّ القصص! فتصور أنك ستكون مثلهم بعد خمسين سنة، وسيحكي الآتون قصتك، وما أن تغمض عينيك وتفتحها حتى تنصرم هذه الخمسون سنة، وتنتهي أيامك.

تعريب شعر فارسي:

آه كم يغيرنا الدهر كثيراً ... نمى ورداً وفتح الأزهارا

كم يأت آذار وآب وتشرين ... ونحن ترابٌ نكون وآثارا

بعد هذا التأمل تفكر قليلاً في مصائب أرباب الرئاسة والجاه لآلامهم وهمومهم، فصاحب الجاه دائماً هدف لسهام أذى المعاندين، وخائف باستمرار من الذل والعزل، ويقع كل لحظة في مخالب الأفكار الباطلة. فأحياناً يخاف من أن يصير خادماً وغلاماً. وأخرى يعيش في الآمال الساذجة، يقضي حياته بالتملق، وينتهي عمره بالنفاق مع هذا وذاك. لا نوم له في الليل، ولا راحة وهدوء له في النهار. إن شرح هذا المقام أوسع من أن يُستوعب هنا؛ لذلك نكتفي بهذا المقدار.

وضد حبّ الجاه حب أن يكون مغموراً وهو شعبة من الزهد، ومن صفات المقربين الحسنة، ومن علائم أهل الجنة. والله يحب الشخص المجهول، بل في بعض الروايات أن الله تعالى يقول في بعض ما يمن به على عبده: **«ألم أنعم عليك؟ ألم أسترك؟ ألم أخمد ذكرك»**[1].

---

(١) إحياء العلوم، ج٣، ص٢٧٧.

نعم فأي نعمة أعلى من أن يعرف المرء إلهه، ويقنع بالقليل من الدنيا ولا يعرفه أحد. لأنه عندما يأتي الليل ينام بعد عبادته بأمن وراحة، فإذا كان النهار ينطلق إلى عمله مطمئن البال، ولهذا السبب اختار أكابر الدين والسلف الصالحون كنز الوحدة، وافترشوا زاوية مظلمة، وأقفلوا باب التردد إليهم بوجه الخلق، وتخلّوا عن العظمة والجاه.

٢٠ ـ الصفة العشرون: حب الثناء والمدح وكراهة الذم:

وهو نتيجة حب الجاه ومن المهلكات، لأن الشخص الذي يحب الجاه هو دائماً طالب لرضى الناس، ويجعل قوله وفعله على وفق طلبهم ورغبتهم رجاءً للمدح وخوفاً من الذم، يلفت إلى رضى مطلقاً الخالق. فكثيراً ما يترك الواجبات، ويعمل المحرمات، ويتساهل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتعدى عن الحق والإنصاف. ولا شبهة في أن جميع ذلك باعث للهلاك.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال لرجل أثنى على آخر بحضرته: «**لو كان صاحبك حاضراً، فرضي بالذي قلت، فمات على ذلك، دخل النار**»[1].

وورد أيضاً أنه ﷺ قال:

«**ألا لا تمادحوا! وإذا رأيتم المدّاحين، فاحثوا في وجوههم التراب**»[2].

ولصاحب هذه الصفة عدة مراتب:

الأولى: أن يكون طالباً للمدح ولو كانت أسبابه ارتكاب المحرمات.

الثانية: أن يكون طالباً للمدح، ولكن ليس بالمحرمات بل بالمباحات، بحيث يكتفي بالمقدار الذي يحصل به.

(١) جامع السعادات، ج٢، ص٣٦٧.
(٢) جامع السعادات، ج٢، ص٣٦٧.

الثالثة: أن لا يكون طالباً للمدح، ولكن إذا مدحه أحد أحس بالفرح.

الرابعة: مثل الثالثة ولكنه يتألم من هذا السرور والفرح.

المرتبة الأولى: باعثة على الهلاك بل هي عين الهلاك.

المرتبة الثانية: هي في حدودها.

المرتبة الثالثة: نقص.

المرتبة الرابعة: هي في مرتبة المجاهدة.

وعلاج هذا المرض هو أن تنظر في سبب فرحك ولذتك من المدح، فهل هو لكمالٍ تراه في نفسك؟ أم حب الجاه والشهرة؟ أو أمثال ذلك، فعالجها بأدويتها. وتأمل بعد ذلك فقد يكون المدح غيرِ خالٍ من الرضى والغرض، بل هو فخ لاصطياد دينك ودنياك، إضافة إلى أن غالب المديح كذب، ونفاق. فالأحمق هو من إذا لفَّق منافق في حضوره كذبة مّا، فرح بذلك. وكم هو جميل في هذا المقام هذه النصيحة من سعدي: «لا يغرك خداع العدوّ، ولا تشتر غرور المدّاح، فهذا كمين وَضَع، وذاك يجر أذيال الطمع».

أما قبح كراهة الذم فقد علم أيضاً بالقياس بما سبق، وعلاجه أن تتأمل في أنه إن كان ذاك الشخص صادقاً في ذمه، وكان غرضه النصيحة، فلا مكان للكراهة، بل المناسب أن تفرح وتعلم أنه صديقك، وتسعى في إزالة تلك الصفة المذمومة.

وإن كان غرضه إيذاءك، فيجب أن تفرح، ولا تعاديه فقد عرّفك بعيب كنت جاهلاً بقبحه.

وإذا كان في ذمه كاذباً، فاعلم أن افتراءه كفارة للذنوب. إضافة إلى أن من كان خالياً من العيوب فيما بينه وبين الله، فلا يصل إليه ضرر من ذكر الآخرين لعيوبه، لا في الدنيا، ولا في العقبى. أما في العقبى فواضح، وأما

في الدنيا فمن المجرب والمشهور أن رأس البريء عاقبته البقاء لا الفناء. بل الغالب أن يكون ذكر عيوبه سبب لعزته وسعادته، ومن حسناته أنه موجب لذلة، وهوان الذامّ. ونعم ما قال العارف الرومي:

متى ينجس البحر بأفواه الكلاب   متى تطمس الشمس أكوام الضباب

والعلاج العملي لحب المدح هو أن يدير وجهه عن من يمدحه، ويقطع كلامه ولا يعمل بما يريد، حتى تزول صفة النقص هذه منه تدريجاً.

٢١ ـ الصفة الحادية والعشرون: الرياء:

وهي عبارة عن طلب المنزلة لدى الناس بوسيلة الأفعال الصالحة، أو بالآثار التي تدل على الصفات الحسنة، أو الرياء في أصل الإيمان، كإظهار الشهادتين، وإظهار الاعتقاد ببعض ضروريات الدين مع الإنكار قلباً، أو في العبادات. وهو إمّا في الواجبات مثل: إظهار الصلاة، والصوم الواجب وأمثال ذلك في حضور الناس، في حال أنه يتركها في الخلوة. أو في المستحبات مثل: الإتيان بالنوافل الليلية والنهارية، ورفع الصوت بالتسبيح، والتهليل، والصلوات، ونحو ذلك في المجالس، في حال أنه تارك لها في الخلوة. أو الرياء في وصف العبادات، مثل: إتيان الركوع، والسجود، وسائر أفعال الصلاة في حضور الناس. ومثله مسح الدموع بقصد الإظهار للناس، إذا بكى في مجالس التعزية، والحديث، ونحو ذلك، وغير هذا من أقسام الرياء الأخرى وجميعها مذمومة شرعاً بل من المهلكات والمعاصي الكبيرة، والآيات والأخبار في ذمه كثيرة. وفي الحديث النبوي عنه ﷺ:

«الرياء هو الشرك الأصغر»[1].

(١) إحياء علوم الدين، ج٣، ص٢٩٤. المحجة البيضاء، ج٣، ص٢٩٧، جامع السعادات، ج٢، ص٣٧٦.

وروي عن رسول الله ﷺ: **«إن المرائي ينادى عليه يوم القيامة: يا فاجر يا غادر يا مرائي ضل عملك، وحبط أجرك، فخذ أجرك ممّن كنت تعمل له»**[1].

اعلم أن مادة مرض الرياء هي الطمع في مال ومنافع الناس، أو حب مدح وإطراء الناس له. وعلاجه قطع أصل المادة، والتفكر في ضرره ومفاسده. ثم مخاطبة النفس بأن يقول: أيها الأحمق الجاهل تدعي الإيمان، ولا تخجل من أن تبيع طاعة وعبادة الحق سبحانه طمعاً في مال أو مدح العباد! ولا تستحي أنك تستهزىء بالله تعالى بهذه الأفعال! وتجيد تحصيل رضى الناس بالطاعة الريائية، ولا تخاف من السخط الإلهي ومن فساد عملك! وحضرة الإله عندك أقل اعتباراً من بعض العباد المساكين، في حال أن زمام اختيار جميع الأمور في قبضة قدرته.

هذا إضافة إلى أن فساد العبادة بالرياء أمر يقيني ومعلوم، وأن حصول المنتظر من الناس احتمالي وموهوم، وكثيراً ما يظهر الحق تعالى رياءك، ويذلك، ويفضحك.

أوردنا تفصيل هذه الصفة وعلاجها في كتاب مقاليد النجاح، ولا يسع ذلك هذا المختصر أكثر.

وضد الرياء الإخلاص، وهو مقام رفيع من مقامات المقربين، وهو الكبريت الأحمر والإكسير الأعظم، وسبب تكليف نوع بني آدم. بل إن صفة الإخلاص سر جميع الأخلاق الفاضلة، وأعلى الملكات الحسنة، وقبول العمل منوط ومرتبط بها، والآيات والأخبار في فضيلتها وفوائدها كثيرة. في الحديث النبوي عنه ﷺ:

---

(١) إحياء علوم الدين، ج٣، ص١٩٤. المحجة البيضاء، ج٣، ص٢٩٧. جامع السعادات، ج٢، ص٣٧٦.

«ما من عبد يخلص العمل لله تعالى أربعين يوماً، إلاّ ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[1].

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«لا تهتمّوا لقلة العمل، واهتموا للقبول»[2].

بإخلاص النية حسن العبادة فالقشر بلا لبّ بلا إفادة

يكفي في مدح هذه الصفة أن الحق تعالى يقول في القرآن المجيد عن لسان الشيطان الرجيم:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾[3].

٢٢ ـ الصفة الثانية والعشرون: النفاق:

وهو أن يكون الإنسان ذا وجهين مع الناس. والمراد مدح الشخص في الحضور، وذمه في الغيبة. أو التنقل بين عدوين، وموافقة كل منهما في معاداته للطرف الآخر، ويزين عداوته له.

هذه الصفة من المهلكات العظيمة ولسببها يكون صاحبها يوم القيامة ذا لسانين، أحدهما في وجهه والآخر في قفاه، وهما مشتعلان يشويان وجهه. ولا يخفى أنه إذا تردد شخص بين عدوين لا لزيادة عداوتهما، بل لإظهار صداقته لكل منهما، فليس نفاقاً. وكذلك إذا خاف شخص من شر شخص آخر، وأظهر محبته له دفعاً لشره، فمداراته ليست مذمومة بل جائزة. نقل عن بعض الصحابة أنهم كانوا يبتسمون في وجه أشخاص تلعنهم قلوبهم.

(١) جامع السعادات، ج٢، ص٤٠٤. إحياء العلوم، ج٤، ص٢٧٦.
(٢) جامع السعادات، ج٢، ص٤٠٤. إحياء العلوم، ج٤، ص٢٧٦.
(٣) سورة ص، الآية: ٨٢.

هذا السلوك جائز للضرورة، لا كما يفعل أكثر أهل الزمان الذين يقصدون النفاق مع الناس، لمحض دناءة الطبع وضعف النفس، أو طمعاً لفضول الدنيا، أو بتوهمات واهية، فيمدحونهم بكلام لا تعرفه قلوبهم، ويسمونه مداراة، وحسن سلوك، ولكنهم أخطأوا.

٢٣ ـ الصفة الثالثة والعشرون: الغرور:

وهي منشأ أكثر الآفات والشرور، والمراد الاغترار بشبهات وخداع الشيطان في الأمن من عذاب الحق تعالى، والاطمئنان بأمر موافق للهوى وملائم للطبع. لأن أكثر الناس يحسنون الظن بأنفسهم، ويحسبون أن أعمالهم وأفعالهم صحيحة، في حال أنهم يخطئون. فهم مغرورون كالذين أخذوا أموال الناس، وصرفوها في الخيرات، والمبرات، وهم يحسبون أنها أعمال صالحة؛ غافلين عن أن هذا غرور، وغفلة، ومنبع لكل أنواع الآفات والشقاء. ولقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«كم من صائم ليس له من صيامه إلاّ الجوع والظمأ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلاّ السهر والعناء، حبذا نوم الأكياس وإفطارهم»[١].

واعلم أن أهل الغرور والغفلة كثيرون، وطوائف المغرورين لا تعد، وعددها بطريق الإجمال كالتالي:

الأولى: طائفة الكفار، وأصحاب المذاهب الفاسدة المغرورون بالشبهات الواهية.

الثانية: طائفة الغارقين في شهوات الدنيا من أهل الفسق والمعاصي، كالمغرورين بأن اللذات الدنيوية يقينية، واللذات الأخروية احتمالية، ولهذا السبب يقدمون اليقين على الاحتمال.

(١) نهج البلاغة فيض الإسلام ص١١٥٤. نهج ابن أبي الحديد، ج١٨، ص٢٤٤.

وكالذين غرهم الشيطان بربهم بأن الدنيا قد أقبلت بوجهها إليهم، فيرون ما أنعم الله عليهم وينظرون إلى الفقراء ومساكين المؤمنين أيضاً فيخالون بأن الله لطف بهم ورحمهم بأن لم يكونوا فقراء، ويقيسون الدنيا بالآخرة. فتظهر لديهم حالة من النخوة والعجب والغرور، ويشتغلون بالمال والنعمة، ويفتتنون بالجاه والثروة. لا يتكلمون إلاّ بالسفاهة، ولا ينظرون إلاّ بالكراهة. ينسبون إلى العلماء الاستعطاء، ويعيبون الفقراء بالجهل، ويجلسون فوق الجميع بسبب ما لديهم من المال، والعزة، والجاه التي يحسبون أنهم يمتلكونها، لأنهم أفضل منهم، جاهلين بقول الحكماء: «من كانت قليلة طاعته وكثيرة نعمته، فهو غني في الظاهر فقير في الباطن».

ويناسب هذا المقام كلام الشيخ سعدي: «الغني الفاسق تراب مذهب، والفقير الصالح حبيب أغبر، فهذا قباء موسى المرقع وذاك ريش فرعون المرصع».

كالذين غرهم الشيطان بأن الله أرحم الراحمين، ولا قدر للمعاصي في جنب رحمته، وأن اليأس مذموم فيرتكبون أنواع المعاصي ويرون بأن هذا هو الرجاء.

أو كقوم نسوا معاصيهم الكثيرة، ويذكرون دائماً طاعة عملوها كحج، أو زيارة، أو بناء مسجد، أو رباط ونحوه، ويمنون على الله بذلك، ويعتقدون أنهم مغفور لهم على الإطلاق.

الثالثة: المغرورون من طائفة أهل العلم الذين يغترون بسبب معرفتهم بعلم الصرف، والنحو، أو المنطق، والمعاني، أو الأصول، أو امتلاكهم قوة العبارة، أو الفهم، أو آداب المناظرة وإيراد الشكوك والشبهات، أو كمال العبادات والمعاملات وأمثالها. ومن هذه الطائفة هناك جمع لوّثوا أنفسهم بالأخلاق القبيحة، ولكن الغرور والغفلة وصل بهم إلى حدّ أنهم يحسبون أن شأنهم أعلى من أن تكون فيهم صفة سيئة؛ ويرون الأخلاق

الرذيلة منحصرة في عوام الناس، ويظنون أن التكبر إظهار لشرف العلم، والطعن والغيبة للأقران غضب في الدين وبغض في الله، والرياء هداية للناس في الاقتداء! وأصناف المغرورين بالجملة هم من هذه الطائفة.

الرابعة: المغرورون من طائفة الوعاظ، وأهل الغرور منهم كثيرون. بعضهم يتكلم عن أحوال النفس وصفاتها من الخوف، والرجاء، والتوكل والرضا وغيرها. ويظنون أنهم بذكرها يكونون متصفين بها، في حال أنهم في هذه الصفات لم يرتفعوا من المستوى العامي الأدنى.

البعض الآخر مشغولون بقراءة القصص ونقلها، ويتكلمون بالسجع والقافية، ويسعون للحصول على القصص الغريبة، والأحاديث العجيبة، طالبين أن يرفع مستمعوهم الصوت بالبكاء، ويخدشوا وجوههم، ويظهروا الإعجاب بكلامهم. يلتذون بأمثال هذه الأمور، وكثيراً ما يصنعون القصص الكاذبة من أجل جلب رقّة العامة وشوقهم وميلهم.

الخامسة: المغرورون من أهل العبادة. بعضهم غلب عليهم الوسواس في إزالة النجاسة، ويفرضون الاحتمالات البعيدة الموجبة للنجاسة. فإذا كان الأمر يتعلق بالبطن يجعلونه حلالاً بأي شكل كان، وكثيراً ما يحلّلون الحرام المحض بمحامل بعيدة! وبعضهم يتوسوسون في الوضوء، والبعض بالنيّة، والبعض الآخر في دقائق القراءة وإخراج الحروف. وهم أحياناً يفسدون وضوءهم وعبادتهم بسبب كثرة المبالغة في الوسواس. وجماعة أخرى من أهل العبادة يغترون بحجهم وزيارتهم، والبعض الآخر ببعض الأعمال الصالحة مثل قراءة القرآن، وصلاة الليل، وغسل الجمعة، وكثرة الذكر، أو قراءة الأدعية والتعقيبات.

السادسة: طائفة أهل التصوف. والمغرورون منهم أكثر من مغروري الطوائف الأخرى. فجماعة منهم دراويش أصحاب بوق وصولجان، وهم أرذل الناس، وأذل الخلق. جماعة أخرى تظاهروا بهيئة الصوفيين، ولبسوا لباساً صوفياً، يشتغلون ببعض أعمالهم. يحنون رقابهم ويخفضون أصواتهم،

ويتنفسون أنفاساً عميقة. يهزون رؤسهم تارة، ويضربون يداً بيدٍ ويتأوهون تارةً أخرى. وكثيراً ما يتعدون ذلك فيرقصون، ويشهقون وينهقون، ويخترعون الأذكار، وغير ذلك من الحركات القبيحة الأخرى، ليصطادوا عباد الله. وأحياناً إذا سمعوا كلاماً عن توحيد الحق تعالى، أو شعراً متضمناً للعشق والحب، يرمون بأنفسهم أرضاً، ويضربون وجوههم! وهم مع ذلك لا معرفة لديهم مطلقاً بحقيقة التوحيد وسر الحب.

تعريف شعر فارسي:

لم يذق حقيقة العشق   من كان أسير هواه

ويظنون أنهم بهذه الحركات يكونون من تاركي الدنيا ومن الزهاد!

تعريب شعر فارسي:

ليست نشوة العشق فيك بل   أنت سكران بماء العنب

وجماعة أخرى تركوا الشريعة المقدسة، وأماتوا أساس الدين والملّة، ورموا أحكام الله وراء ظهورهم وصاروا إباحيي المذهب! لا يعرفون حلالاً ولا حراماً، ولا يتورعون عن أي مال. يقولون تارة الله غني عن عبادتنا، فلماذا نتعب أنفسنا؟ وأخرى يقولون يجب عمارة منزل القلب فلا اعتبار لأعمال الظاهر! ويغرقون في أنواع المعاصي، ويقولون وصلت أنفسنا إلى مرتبة لا تمنعها أمثال هذه الأعمال عن سبيل الله. وضعفاء النفوس هم المحتاجون إلى الطاعة والعبادة. ويرى هؤلاء الضالون مرتبتهم أعلى من الأنبياء والأوصياء.

وبعض آخر يدعون المعرفة واليقين، ويدعون مشاهدة جمال المعبود، والوصول إلى مرتبة الشهود، نسجوا أنواع الشطح والطامات، وانساقوا وراء الترهات. ينظرون إلى الفقهاء والمحدثين، وورثة أحكام سيد المرسلين ﷺ بعين الحقارة، وينسبون لأنفسهم أموراً عديدة لم يدّعها نبي ولا وصي، في حال أنهم لا مرتبة لديهم من العلم، ولا أصل من العمل. لا يعرفون إلاّ كلمات

واصطلاحات جعلوها شركاً لهم، أوقعوا فيه جماعة من أهل الدنيا. يأكلون مالهم، ويضيعون دينهم «فهو لحلواهم هاضم ولدينهم حاطم» لا علم لهم بما يدّعون، وهم أبعد الناس عن المنزل الإلهي الأقدس.

وجماعة أخرى يسمّون الملامتيّة، يرتكبون الأعمال القبيحة، ويأتون بالأفعال الشنيعة، ويظنون أن هذا موجب لرفع الأخلاق الذميمة، وكاسر لهوى وهوس النفس الخبيثة. والحال أن نفس هذه الأفعال مذمومة في الشريعة المقدسة، وصاحبها معاقب ومذموم.

السابعة: المغرورون من طائفة الأغنياء وأصحاب المال، وغرورهم أيضاً من طرق كثيرة. يظن بعضهم أن الإقبال والسعة الدنيوية نتيجة القرب إلى الله، ولهذا السبب يفضلون أنفسهم عن الفقراء. ولقد مرّ الكلام عن غرور الطائفة الثانية من هذه الجماعة.

والبعض الآخر يسعون في بناء المساجد، والمدارس، والرباط، وأمثالها، ولكن لا يتورعون عن صرف المال الحرام فيه، بل كثيراً ما يكونون قد أخذوا أرض المدرسة والمسجد أو آلاتهما وأدواتهما غصباً وقهراً، ولم يكن لديهم باعث إلاّ الرياء والشهرة. وجماعة أخرى يبسطون أيديهم بالبذل والعطاء والصدقات، ولكن يسعون لأن يصل مالهم إلى شخص معروف، أو إلى من يمدحهم ويشكرهم في مجامع الكلام. ولا يعطون الفقراء المجهولين. أو يصرفونها في سبيل حجهم وزيارتهم، أو أحد المنسوبين إليهم الموجب لاشتهارهم.

وقوم آخرون جمعوا مالاً كثيراً من حلالٍ وحرام، ويسعون نهاية السعي في المحافظة عليه، ويمسكون غاية الإمساك في صرفه. أما في العبادات التي ليس فيها للمال محلّ فيجدون ويجهدون، غافلين عن أن صفة البخل مهلكة، ودفعها واجب.

وبالجملة، المغرورن من كل طائفة كثيرون، وطالبوا السعادة يجب عليهم الاحتراز من الآفات، وأن لا يتأذوا بهذه الكلمات فنصيحة الحكيم عين

الصواب ومحض الخير «وحسن الحظ من سمع بسمع الرضى». فإذا «والعياذ بالله» أدت هذه النصيحة إلى الأذى والحزن، فنختم الكلام ونعتذر ونقول:

تعريب شعر فارسي:

قـلـبـك إن تـأذى بـوعـظ حـافـظ   فتب كي نتوب عن قول المواعظ

٢٤ ـ الصفة الرابعة والعشرون: طول الأمل:

وهو عبارة عن الآمال الكثيرة في الدنيا، والأماني الكثيرة الطويلة، والأمل بالحياة في الدنيا والبقاء فيها. وسبب هذه الصفة شيئان:

الأول: الجهل، فالجاهل يعتمد على شبابه وصحة مزاجه، ويرى الموت بعيداً في عهد الشباب وحالة صحة المزاج، غافلاً عن موت الأطفال والشبان الذي لا يحصى. فكل يوم تحمل على الأكتاف جنازة أحدهم إلى المقبرة، والمسكين لا يلاحظ بأنه إذا عدّ أهل مدينته لم يجد واحداً في المائة عجوزاً، فجميعهم علقوا بمخالب الموت قبل مجيء زمان الشيخوخة. ولكي يموت عجوز واحد يكون قد مات ألف صبي وطفل. غافلاً عن الموت بالميتات المفاجئة التي لا وقت محددّ لها.

الثاني: حب الدنيا الدنيّة، والأنس باللذات الفانية. فما دام الإنسان مبتلىً بهذه المحبة والأنس، تكون مفارقتها غالية عليه. لهذا لا يخضع للتفكير بالموت الذي هو هادم اللذات، وإذا خطر في قلبه أحياناً ينقل نفسه إلى التفكير بأمر آخر. ويكره رؤية الكافور والكفن. وإذا تذكر الآخرة أحياناً خدعه الشيطان والنفس الأمارة ووعداه بأنه: ما زلت في مقتبل العمر، فاشتغل الآن قليلاً بالتنعم وجمع الأسباب حتى تكبر، وتب آنذاك وتهيأ لعمل الآخرة. فإذا كبر يقول: الآن أنت شاب، وما زال هناك وقت للشيخوخة! فإذا صار شيخاً يقول: أبني هذه المزرعة (إن شاء الله) أو: أجهز هذه البنت، أو: أتمّ هذا البيت، ثم أترك الدنيا وأتفرغ في زاوية للاشتغال بالعبادة. وكلما انتهى من شغل جاء شغل آخر، وكل يوم يقول اليوم وغداً. فإذا بنداء يأتي فجأة «السيد قد مات» وهذا

المسكين غافل عن أنه يعد نفسه وعد الغد، وأن الغد ليس بيده، وأن الفراغ من شغل الدنيا لا يكون، وأن الفارغ هو من تركها فجأة.

وعلاجه بمعالجة مرض حب الدنيا الذي مرّ، وبملاحظة أحوال هذه العارية الخائنة. واستماع مواعظ ونصائح أرباب النفوس المقدسة، وبأن يشعِر نفسه أن خشب التابوت اليوم بيد النجار، أو أن الكفن قد جاء من عند النساج، وأخرجت لبنة اللحد من القالب، فليفكر في نفسه وليقل:

تعريب شعر فارسي:

مالك في الخيمة مستلقياً قد نهض القوم وشدّوا الرحال

وضده قصر الأمل، الذي هو قلة الأمل بالدنيا، وهو شعار أهل الإيمان، وسيرة الصلحاء والأخيار. قال الرسول ﷺ:

«إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح وخذ من دنياك لآخرتك، ومن حياتك لموتك، ومن صحتك لسقمك، فإنك لا تدري ما اسمك غداً»[1].

قال أبو سعيد الخدري: اشترى أسامة بن زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار - إلى شهر - فسمعت رسول الله ﷺ يقول:

«ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر؟ إن أسامة لطويل الأمل. والذي نفسي بيده ما طرفت عيناي إلاّ ظننت أن شفري لا يلتقيان حتى يقبض الله روحي»[2].

لا يخفى أن الناس مختلفون في طول الأمل وقصره، فجماعة يخالون أنهم لن يموتوا أبداً. وبعض آخر يخالون ذلك أحياناً ولكنهم يأملون بالحياة إلى السن الطبيعي، ولا يتصورون الموت في سن أقل من ذلك. ويعملون على

---

(١) إحياء علوم الدين، ج٤، ص٤٥٢. جامع السعادات، ج٣، ص٣٧.

(٢) إحياء علوم الدين، ج٤، ص٤٥٣. جامع السعادات، ج٣، ص٣٧.

تحصيل معيشة مائة سنة بل مائتي سنة. وبعض لا يأملون بعمر أزيد ممّا لدى كثير من الناس، لا يأمل بالحياة سنة واحدة زائدة، ولا أمل له بمستقبله، هذا الشخص بالنسبة إلى المراتب السابقة قصير الأمل. وأفضل منه من لا يفكر بأكثر من يومه وليلته، وأعظم من هذا الشخص من كان الموت حاضراً أمام عينيه دائماً، فهو مع كل صلاة يصلي صلاة المودعين للدنيا.

لكن أكثر الناس وخصوصاً في هذا الزمان، غلب عليهم طول الأمل فغاب عن بالهم تماماً ذكر الموت. وبقدر ما يزداد سنهم، ويقتربون من سفر الآخرة، يزداد حرصهم، وطول أملهم، كما في الحديث النبوي الذي أشير إليه ونشاهد ذلك عند أكثر الشيوخ في عصرنا.

فمن وصل سنّه إلى أربعين سنة يكون تفكيره بالدنيا غفلة، ومن خداع الشيطان. فقد مضت أيام اللذة والتنعم، وتصرّم عهد النشاط والمرح. وكل يوم يتلف عضو من أعضائه، لكن المسكين غافل عن ذلك، غارقٌ في الأفكار الباطلة.

واعلم أن كل من يجمع أكثر من الضروري لسنته كان طويل الأمل. وكذلك كل من استغرق في الأمور الدنيوية، واشتغل بالمحاسبة والمعاملة مع الناس، وطال زمانها ولم يضطرب، فهو طويل الأمل.

علامة قصر الأمل أن يجمع أمره، ويكون كمن يريد السفر، ولا يسعى لجمع قوت أكثر من سنة، بل أربعين يوماً. وأن يصرف بقية أوقاته في الطاعة والعبادة.

وعلاج طول الأمل ذكر الموت. فذكر الموت يقبض قلب الإنسان عن الدنيا، ويصرفه عنها. لهذا قال الرسول ﷺ:

«أكثروا ذكر هادم اللذات»[١].

---

(١) جامع السعادات، ج٣، ص٣٨.

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام:

«ما من أهل بيت شعر ولا وبر إلاّ وملك الموت يتصفحه كل يوم خمس مرات»[1].

والعجب أن ابن آدم متيقن بالموت والنزول في القبر. ولا يستفيق في نوم الغفلة، ولا يفكر بما هناك.

فمن يعلم أن عاقبته الموت وأن مرقده تراب القبر، وجليسه الدود، والحيّات، والعقارب، ومنزله باطن الأرض، حقيق عليه أن يكون شديد الحسرة متواصل الدمع على الخدين، تفكيره وذكره منحصر في هذه البلية.

فعلى طالب النجاة أحياناً أن يذكر الموت كل يو، حال الأقران، والأصدقاء، والأصحاب الذين تركوا الدنيا، وهم راقدون وحيدين في وحشة القبر أحياناً أخرى. وأن يتذكر صورتهم، وهيأتهم، وما يجري عليهم، ويفكر كيف يبلي التراب صورهم، وتفرق أجزاءهم في القبر. نساؤهم أيامى، تظهر علائم اليتم على وجوه أطفالهم. خليت منهم البيوت، وامّحى اسمهم من صفحة الدهر. يجول بخاطره على كل واحد من الماضين، ويذكر أيام حياتهم، وضحكهم، وفرحهم، ويتصور آمالهم، وأمانيهم، وسعيهم في جمع أسباب الحياة.

ثم يتذكر أنهم الآن في القبر تفرقت مفاصلهم، وخرست ألسنتهم، وصاروا طعاماً للأفاعي والنمل. امتلأت أفواههم بالتراب!

فيا أيها الأخ العزيز اذهب إلى المقبرة قليلاً، ومُرَّ على تربة الأصحاب، وانظر نظرة اعتبار على لوح مزارهم، وتفكر في ما يحدث تحت قدميك بمسافة ذراعين.

تعريب شعر فارسي:

---

(١) جامع السعادات، ج٣، ص٤١.

قال سعدي:

ضربت يوماً معولي فوق التراب	سمعت نوحاً مؤلماً فيه العتاب
حذار من غي رويداً في خطاك	هذي ضلوعي وسدت عند الشباب
ملكت الأرض ها أنا فيها دفين	رفيقاً غدوت لذرات التراب

فإذا نظرت باعتبار، رأيت رفاقك الذين تساووا بالتراب والطين، وسمعت آهات حسراتهم تجوز الأفلاك، تركوا الصحبة، وأداروا وجوههم عنا. آباء قطعوا عطف الأبوة، وأمهات تخلّوا عن أطفالهن، وإخوة نسوا أخوتهم. متكبرون أحنوا رؤوسهم لنير المذلة، وسلاطين وملوك ينامون على حفنة من تراب. قادة جيوش باتوا منفردين وحيدين. جَمال يوسف عليه السلام، يرتع عليه الدود، حديثي زواج يعانقون الأفاعي السود بدل الزوجات، وزوجات غدين في حضن الأفاعي، والنمل في مخدع القبر. تجار وقعوا في حجرة القبر بلا ربح ولا رأس مال.

فتأمل بعد هذا في عاقبة عملك، فأنت ستصير مثلهم، وينصرم عمرك وتظهر علامة الموت فيك. ويمتنع الأطباء عن معالجتك. تتوقف أعضاؤك عن الحركة ويبدو عرق الموت على جبينك، ويأتي ملك الموت بأمر الرب لقبض روحك. سواء شئت أم أبيت ستحيط بجسمك الضعيف مخالب الموت، ويفرق بين جسمك وروحك. ويعلو صراخ إخوتك في مأتمك حسرة، ويبدأ أحباؤك، ورفاقك بالبكاء لموتك. ثم يحملونك في التابوت ويأخذونك إلى سجن قبرك، ويتركونك في وحشة لحدك وحيداً، ويرجعون!

إذا فكرت قليلاً بأمثال هذه الأمور، تقل آمالك تدريجاً، وتستعد لسفر الآخرة. وتستغنم أيام حياتك وصحتك وشبابك وغناك وفراغك المعدودة.

٢٥ ـ الصفة الخامسة والعشرون: الإصرار على معاصي الباري عز وجل، وعدم الندم عليها:

روي عن أبي الحسن الرضا عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«لا تبدين عن واضحة وقد عملت الأعمال الفاضحة، ولا تأمن البيات وقد عملت السيئات»[1].

وعن الصادق عليه السلام أنه قال:

«من هم بسيئةٍ فلا يعملها، فإنه ربما عمل العبد السيئة فيراه الرب تبارك وتعالى فيقول: وعزتي وجلالي لا أغفر لك بعد ذلك أبداً»[2].

وروي أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«إن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل، وإن العمل السيء أسرع في صاحبه من السكين في اللحم»**[3].

الأخبار في هذا المعنى كثيرة، فحذار! لا تظنن أنك لا تؤخذ بوبال معصيتك. فانظر إلى الله تعالى كيف لم يعفُ عن الأنبياء، ولم يترك تأنيبهم لتركهم الأولى، وعاقبهم على ذلك. وآخذهم على ذلك. ألم تسمع أن جدك الصفي آدم عليه السلام الذي سجدت له الملائكة أخرج من الجنة بسبب ترك الأولى، وأخذوا منه حلل وزينة الجنة. فبكى آدم بعد ذلك مدة مائتي سنة حتى قبل الله تعالى توبته. فإذا كان المقربون لله عزَّ وجلَّ يعاقبون بترك الأولى، فكيف هو حال الآخرين الذين تصدر منهم المعاصي كل يوم وهم يستسهلون ذلك؟! بعد هذه المعاصي الكثيرة، يطمحون بالغفران ودخول الجنان؛ بسبب طاعة واحدة غير تامة. فما أجمل ما قال شيخنا البهائي في هذا المقام:

في جنة الرحمان كان جدك آدم تسجد الأملاك إليه وتعظم
أتى بمعصية حقيرة فبات بها مذنباً طريداً يبكي لها الدم
وأنت تطمع بالمعاصي أن تنال الجنان مغفوراً لا تؤثم

---

(١) أصول الكافي، ج٢، ص٢٧٢.
(٢) أصول الكافي، ج٢، ص٢٧٢ ـ ٢٧٣.
(٣) أصول الكافي، ج٢، ص٢٧٢ ـ ٢٧٣.

وضد الإصرار على المعصية التوبة، وهي الندم على المعصية من جهة كونها معصية لأمر الحق تعالى، وتتحقق حقيقتها بثلاثة أشياء:

الأول: قوة الإيمان، ومعرفة ضرر المعاصي، وإنها حجب بين العبد والمحبوب.

الثاني: الندم على العمل، بمعنى أن يحزن القلب بسبب تذكر الآتيان بذاك العمل، وتمنى عدم صدوره منه.

الثالث: ترك ما ارتكبه من المعصية في الحال، والعزم على تركه مدى الدهر، وقصد تلافيه إن كان ممكناً.

فالندم والعزم على الترك ليسا كافيين في قبول كل توبة، بل يجب تدارك ذلك الحق؛ لأن المعصية التي تصدر من الإنسان إمّا أن تكون حقاً محضاً لله، ولا حق لغير الله فيه، أو للناس فيه حق. والصورة الأولى أيضاً قسمان:

فإمّا أن يكون شيئاً لا قضاء له، ولا تلافي مثل: شرب الخمر، وضرب الوتر وأمثال ذلك، فتوبته هي نفس الندم والعزم على تركه. أو شيئاً له قضاء مثل: الصلاة، والصوم، والزكاة، والخمس، والحج، والكفارة، وأمثالها، فيجب فيها. - إضافة إلى الندم. والعزم على الترك - قضاؤها بقدر الإمكان.

والصورة الثانية التي هي حق الناس، إمّا أن يكون الحق حقاً مالياً، أو بدنيّاً، أو عرضاً. فإذا كان مالاً، وكان لديه القدرة على ردّه إلى صاحبه، وجب ردّه. وإذا كان معسراً، استحل منه. وإذا كان قادراً وصاحبه ليس معروفاً، يعطيه للفقراء. وفي صورة الإعسار إذا أحلك صاحبه، أو لم تتمكن من الوصول إليه، فاستغفر لصاحبه، واعمل عنه الأعمال الحسنة، وتضرع إلى الله تعالى وأسأله أن يرضى عنك صاحبه يوم القيامة.

وإذا كان حقاً بدنياً فمكّن صاحبه من الاقتصاص منك، أو أرضه

بالإحسان إليه، والإنعام عليه إذا كان بإمكانك الوصول إليه. وإلاّ فتضرع إلى الله تعالى أيضاً، واستغفر له وأدّ عنه العبادات.

وإذا كان الحق عرضاً كما لو استغبت أحداً، أو بهتّه، أو سببته، أو أحزنته، فيجب الاستحلال منه. وإلاّ فاستغفر له، واسعَ سعياً زائداً في القيام بالأفعال الحسنة؛ لتكون عوضاً عن حقه. ويجب في البهتان أيضاً أن تذهب إلى من بهتّه، وتقر بكذبك. وفي جميع الصور التي تكون حقاً للناس هي أيضاً حق لله تعالى، فيجب قضاء حق الله عزَّ وجلَّ بالندم، والعزم على الترك.

اعلم أن التوبة عن المعاصي هي رأس مال السالكين، وموجبة لمحبة رب العالمين. نقل عن الإمام الباقر عليه السلام:

«إن الله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلةٍ ظلماء فوجدها، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها»[1].

وقال الصادق عليه السلام:

«إن الله يحب العبد المفتَّن التواب، ومن لا يكون ذلك منه كان أفضل»[2].

ولا يخفى أن العلماء ذكروا أن التوبة واجب فوري، وهي بمنزلة الترياق لسموم المعاصي. والتسويف والتأخير فيها مردد بين خطرين عظيمين: أحدهما وصول الأجل، وفوات وقت التدارك. والآخر تراكم ظلمات المعاصي على القلب، وتجمعها حتى تصير بمرتبة الطبع[3] غير قابلة للمحو كما قال لقمان لابنه:

---

(١) أصول الكافي، ج٢، ص٤٣٥، ج٨ ـ ٩.

(٢) أصول الكافي، ج٢، ص٤٣٥، ج٨ ـ ٩.

(٣) إشارة إلى الآية الشريفة: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ التوبة: ٨٧.

«يا بني لا تؤخر التوبة فالموت يأتي فجأة، ومن يؤخر التوبة يدركه أحد خطرين عظيمين: إن بقي حياً صدأ قلبه بالمعصية، وأسودً، وأظلم فلا يزول عنه ثانية. وإذا أخذه الموت لا يجد مهلة للتدارك».

فيا من صرف عمره بعصيان ربه! استيقظ من نوم الغفلة، وفكر بيوم القيامة. واعلم أن التوبة الجامعة لكل الشرائط مقبولة عند الله عزَّ وجلً.

ولا يخفى أن المعاصي على قسمين:

كبيرة: وارتكابها بدون التوبة يخرج الإنسان من العدالة، ويستحق العقوبة الإلهية.

وصغيرة: لا تزول العدالة بعدم الإصرار عليها، ومع اجتناب الكبائر يعفو الحق تعالى عنها بفضله.

وآراء الأكابر في عدد الكبائر مختلفة. فشيخنا المحقق البهائي «زيد بهاؤه» أشار في شرح الحديث الثالث من كتاب الأربعين إلى اختلاف آراء الأصحاب فقال: قال قوم. إن الكبيرة هي كل معصية توعد الحق تعالى بالعقاب عليها في القرآن، وقال بعض آخر: إن الكبيرة هي المعصية التي عيّن الشارع المقدس لها حداً، أو صرح فيها، بالوعيد بالعقاب. وقالت طائفة أخرى: إن الكبيرة هي كل معصية تظهر قلّة اهتمام فاعلها بالدين، وقال آخرون: إن الكبيرة هي كل كبيرة معلوم حرمتها بالدليل القاطع.

وقال آخر: كل معصية جاء بها الوعيد الشديد في الكتاب أو السنّة فهي كبيرة. وروي عن ابن مسعود أنه قال: اقرؤوا من سورة النساء إلى الآية الشريفة: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾، فكل ما نهي عنه من أول السورة حتى هذه الآية هو كبيرة.

وقالت جماعة: إن المعاصي جميعها كبيرة؛ بسبب اشتراكها في مخالفة أمر الشارع ونهيه. لكن تطلق الصغيرة والكبيرة على المعصية أحياناً، نسبةً إلى مرتبتها العليا أو الدنيا. فتقبيل المرأة الأجنبية صغيرة

بالنسبة إلى مرتبته العليا التي هي الزنا. وكبيرة بالنسبة إلى مرتبته الدنيا التي هي النظر بشهوة.

نقل الشيخ الجليل أمين الإسلام أبو علي الطبرسي «طاب ثراه» في كتاب مجمع البيان هذا القول، وقال بعده: هذا هو مذهب أصحابنا رضوان الله عليهم، فقد قالوا أن المعاصي كلها كبيرة، ولكن بعضها أكبر من بعض. والصغيرة ليست من المعاصي، بل كونها صغيرة هو أمر نسبي، فبالنسبة للمعصية الأكبر يقال صغيرة، انتهى.

وقال قوم: إن الكبائر سبع: الشرك بالله، وقتل النفس المحترمة، ورمي المحصنات، وأكل مال اليتيم، والزنا، والفرار من الزحف والجهاد، وعقوق الوالدين، ورووا في هذا الباب حديثاً عن الرسول ﷺ.

وزاد بعض على هذا العدد ثلاث عشرة معصية أخرى وهي: اللواط والسحر، والربا، والغيبة، واليمين الكاذبة، وشهادة الزور، وشرب الخمر، وترك احترام الكعبة المعظمة، والسرقة، وكسر هيبة الإمام، والتعرب بعد الهجرة[1]، واليأس من رحمة الله، والأمن من العذاب الإلهي.

وأضاف البعض أربع عشرة معصية: أكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما لم يذكر اسم الله عليه في غير الضرورة، والقمار، والبخس بالمكيال والميزان، وإعانة الظلمة، وحبس حقوق الناس بدون عسر، والإسراف، وصرف المال في الحرام، والخيانة في مال الناس، والاشتغال بالملاهي مثل الدف، والطنبور، والوتر، وأمثالها، والإصرار على المعاصي. نقلت هذه المعاصي الأربع عشرة في كتاب عيون أخبار الرضا عن الإمام الرضا عليه السلام.

إذن هناك عشرة أقوال في ماهية الكبيرة، وليس لأي منها دليل تطمئن

---

(١) أي سكنى البادية، وقد يكون في هذه الأزمنة الذهاب إلى البلاد التي ليس فيها عالم ولا يمكن معرفة مسائل الدين هناك عما قال العلامة المجلسي (طاب ثراه). (منه).

النفس له. فيمكن أن يكون في إخفائها مصلحة لا طريق لعقولنا إليها كما خفيت ليلة القدر، والصلاة الوسطى، وغيرهما.

ونقل أصحاب الحديث أنه: سئل ابن عباس عن الكبائر هل هي سبع؟ قال: هي أقرب للسبعمائة منها إلى السبع، انتهى.

ولقد بسط العلامة المجلسي الكلام في هذا المقام في «حق اليقين» وقال: والد الحقير جمعها في بعض تصانيفه، فعلى طالب التفصيل الرجوع إلى كلمات المجلسيين.

٢٦ ـ الصفة السادسة والعشرون: الغفلة عن الأعمال وعن محاسبة النفس:

وهي سبب عام لهلاك أكثر الناس. كالتاجر إذا لم يراجع حساباته كل مدة، وغفل عن ربحه، أو خسارته، وعن مداخله، ومخارجه، وعمّاله، يذهب رأسماله ويفلس بعد مدة وجيزة.

وضد الغفلة محاسبة ومراقبة النفس، أي أن يعين الإنسان وقتاً في اليوم ليحاسب فيه نفسه، ويراجع طاعاته ومعاصيه. فإذا وجد نفسه مقصرة يعاتبها ويؤنبها، ويتدارك ذلك، وإلاّ شكر ربَّه تعالى.

والمراقبة هي أن ينتبه الإنسان لظاهره، وباطنه، كي لا تصدر منه معصية أو يترك واجباً. ولقد ثبت بإجماع الأمة، وصريح الكتاب، والسنّة أن المستوفين في عرصة القيامة، والمحاسبين في ذلك الوادي المهول الرحيب، سيحاسبون العباد على أعمالهم القليلة والكثيرة والنقير[١] والقطمير بدقة. ولا ينجو من خطر هذا الحساب إلاّ من حاسب في الدنيا نفسه، وزان بميزان الشرع أعماله، وأفعاله، وحركاته، وسكناته، لتسهل محاسبته يوم الحساب. وتشير إلى هذه المحاسبة الآية الكريمة: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[٢].

---

(١) النقير: الشق في نواة التمر والقطمير القشرة الرقيقة عليها.

(٢) سورة الحشر، الآية: ١٨.

وقال الإمام موسى الكاظم عليه السلام:

«ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فإن عمل حسناً، استزاد الله، وإن عمل سيئاً، استغفر الله منه وتاب إليه»[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام:

«إذا أراد أحدكم ألاّ يسأل ربه شيئاً إلاّ أعطاه فلييأس من الناس كلهم، ولا يكون له رجاء إلاّ من عند الله تعالى. فإذا علم الله تعالى ذلك من قلبه، لم يسأله شيئاً إلاّ أعطاه. فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، فإن للقيامة خمسين موقفاً كل موقف مقام ألف سنة. ثم تلا: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾»[2].

وكيفية المحاسبة والمراقبة ذات تفصيل لا يسع ذكره هذا المختصر، وقد ذكرته مفصلاً في كتاب «المقاليد».

٢٧ ـ الصفة السابعة والعشرون: الكره:

الكره وهو عبارة عن عدم الميل لشيء يحصل بوجوده ألم وتعب، فإذا اشتد الكره سمي مشقة. وهو إمّا أن يكون لشيء يكون الميل إليه وحبه ممدوحاً شرعاً وعقلاً، أو لشيء ليس كذلك، وما هو من الأخلاق الرذيلة هو القسم الأول.

وضد الكره الحب، وهو عبارة عن الميل، والرغبة بشيء يحدث بوجوده لذة وراحة. والكره والحب متفرعان عن الإدراك والفهم، وتابعان له. والإدراك إمّا أن يتعلق بالمحسوسات التي تدرك بالحواس والخمس، أو بغير المحسوسات. وهو أيضاً إمّا أن يكون بحواس الباطن كالصور الجزئية

---

(١) أصول الكافي، ج٢، ص٤٥٣.

(٢) جامع السعادات، ج٣، ص٩١.

الخيالية، والوهمية. أو بالقوة العاقلة التي يتعقل بها، مثل إدراك المعاني الكلية، والذوات المجردة، والمعارف الحقة.

ولا شك أن اللذات الخيالية والوهمية أشد وأعلى اللذات الحسية؛ لهذا السبب تكون لذة الإنسان بالصورة الجميلة التي يراها في المنام أقوى من لذة هذه الصورة في اليقظة. واللذة العقلية أقوى بمراتب من اللذة الحسية، والخيالية، والوهمية. ونظراً لأنه كلما كانت اللذة والراحة في الشيء أكثر، كان ذلك الشيء أحب؛ لذلك تكون المحبة العقلية أشد وأعلى بمراتب كثيرة من سائر الأنواع، وكذلك الكره.

واعلم أن الحب غير ممكن إلاّ لسبب من الأسباب، ونظراً إلى أن للحب أسباب كثيرة وعلل مختلفة؛ لذلك ينقسم إلى أقسام كثيرة:

الأول: حب الإنسان لوجوده وبقائه، وهو أشد أقسام الحب. فهو فرع الملاءمة، والمعرفة، والاتحاد بين المحب والمحبوب. وهذه الأشياء الثلاثة موجودة فيما بين الإنسان ووجوده أكثر من أي شيء آخر. ولهذا الجهة كان الغافل عن الحقيقة يكره الموت. وترجع محبة الإنسان لأولاده وأقربائه وأهله إلى هذه القسم.

الثاني: حب الغير من جهة حصول اللذة الجسمية والحيوانية منه، مثل حب المرأة والرجل، والأطعمة، والأشربة اللذيذة، والألبسة الفاخرة، وأمثال ذلك. وهو أضعف مراتب الحب، يحدث بسرعة ويزول بسرعة.

الثالث: حب الغير بسبب إحسانه، فالإنسان عبد الإحسان. وطبع كل إنسان مجبول على ذلك.

الرابع: حب الشيء لذاته دون أن يكون هناك غرض فيما سوى ذاته، مثل حب الجمال والخضرة، والماء وأمثال ذلك.

الخامس: الحب بين شخصين لوجود مناسبة معنوية خفية بينهما، مع عدم لقائهم في مناسبة ما.

السادس: حب شخص لآخر يحصل بينهما اجتماع وألفة في بعض المواضع، مثل الأسفار الطويلة كالسفر في السفينة، ونحو ذلك.

السابع: حب شخص ما سبب التجانس والمناسبة الظاهرية، مثل حب الطفل للطفل، والشيخ للشيخ وأمثال ذلك.

الثامن: حب العلة والصانع للمعلول والمصنوع. وحب المعلول والمصنوع للعلة والصانع. وهذا أيضاً سبب للحب بين الوالدين والأولاد، وبين العالم والمتعلم. وأعلى أقسامه حب الله تعالى لعباده، ثم حب أهل المعرفة للحق.

التاسع: حب اثنين لبعضهما وهما مشتركان في علة واحدة، ومعلولان لعلة واحدة مصنوعان من صانع واحد. مثل حب الأخوة والطلاب لبعضهم البعض.

وأكثر أقسام الحب المذكورة فطرية وطبيعية، وأعلى الحب هو حب الله وما ينسب إليه. وليس هناك ما هو أهل للحب كذاته المقدسة، بل حقيقة الحب منحصرة فيه، وهو مقام المقربين.

وروي عن النبي ﷺ أن شعيباً عليه السلام بكى من حب الله عزَّ وجلَّ حتى عمي فردّ الله عليه بصره، ثم بكى حتى عمي، فردّ الله عليه بصره، فلما كانت الرابعة أوحى الله إليه: «**يا شعيب إلى متى يكون هذا أبداً منك. إن يكن هذا خوفاً من النار فقد أجرتك، وإن يكن شوقاً إلى الجنة فقد أبحتك، فقال: إلهي وسيدي! أنت تعلم أني ما بكيت خوفاً من نارك، ولا شوقاً إلى جنتك، ولكن عقد حبك على قلبي، فلست أصبر أو أراك. فأوحى الله: أما إذا كان هذا هكذا سأخدمك كليمي موسى بن عمران**»[1].

وفي دعاء عرفة المنسوب إلى الإمام سيد الشهداء أرواحنا له الفداء قال عليه السلام:

---

(١) جامع السعادات، ج٣، ص١٥٢.

«وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك. . .»[1].

وفي المناجاة التاسعة الإنجيلية:

«إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة حبك فرام منك بدلاً، ومن ذا الذي أنس بعزتك فابتغى عنك حولاً».

تعريب شعر فارسي:

تهون الروح عند من عرف الإله	ويغدو الأهل والمال شقاها
بك الولهان يهيم بعالميه	له الأكوان سيّان فناها

وعن الإمام الصادق عليه السلام:

«حبّ الله إذا أضاء على سر عبده، أخلاه عن كل شاغل، وكل ذكر سوى الله. . .»[2].

وقال عليه السلام:

«والمحب أخلص الناس سراً لله، وأصدقهم قولاً، وأوفاهم عهداً، وأذكاهم عملاً، وأصفاهم ذكراً، وأعبدهم نفساً، تتباهى الملائكة عند مناجاته، وتفتخر برؤيته. وبه يعمر الله تعالى بلاده، وبكرامته يكرم الله عباده، يعطيهم إذا سألوه بحقه، ويدفع عنهم البلايا برحمته، ولو علم الخلق ما محله عند الله، ومنزلته لديه ما تقربوا إلى الله إلاّ بتراب قدميه»[3].

إن ما وصل في خصوص الحب من الأدعية والأخبار أكثر من أن يسعه هذا المقام. واعلم أن طريق تحصيل محبة الله هي شيئان:

الأول: دوام الفكر والذكر لعجائب صنعه وغرائب ملكه، وفيما أنعم

---

(١) إقبال الأعمال للسيد ابن طاووس، ص٣٤٩.

(٢) مصباح الشريعة، ص١٩٢ الباب٩٢.

(٣) مصباح الشريعة، ص١٩٢ الباب٩٢.

به من نعمه غير المتناهية في الدنيا والآخرة. ومناجاته في الخلوة، والمواظبة على العبادات بشرط أن يكون ذلك بعد تخفيف العلائق الدنيوية، وتطهير القلب من المشاغل، فالقلب بحكم الوعاء لا يسع أكثر من شيء واحد. ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾[1] ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾[2].

الثاني: تحصيل المعرفة وتقويتها وسيطرة معرفته على خزانة قلبه، وتحصيل المعرفة يتم بالمواظبة على الطاعات والعبادات والتضرع والابتهال إلى الله القادر المتعال.

ولا يخفي أن كل شخص يحسب أن الله يحبه، بل قد يظن أحياناً أنه يحبه أكثر من أي شيء آخر. وهذا مجرد غرور وحب العبد لربه له علامات:

الأولى: أن يكون طالباً للقائه، وبما أن الوصول إليه موقوف على الموت، يكون مشتاقاً للموت، ولا يكون الموت عليه ثقيلاً بما هو مفاد الآية:

﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[3].

واعلم أن كثيراً من عشاق الله يكونون كارهين للموت، وطالبين للحياة، ولكن هذه الكراهة من أجل زيادة الاستعداد للقاء، وتهيئة أسبابه. ولولا هذا الأمر لما كانوا يريدون البقاء في الدنيا ساعة، بل يطلبون الموت وكل بلاء ومصيبة تكون سبباً للقرب إلى الحق ويشترونها بأرواحهم.

كلما هب النسيم أشم عطرك ... وردةٌ تشكو الجراح أسيرُ دهرك
إجرحِ القلب دواءَ كان جرحك ... أنثر السمّ ففيه شفاء هجرك

الثانية: أن يكون طالباً لرضى الله، ويقدم مراده على مراده فالحبيب الصادق يجعل هواه فداءً لهوى المحبوب.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩١.
(٣) سورة الجمعة، الآية: ٦.

الثالثة: أن يكون ذاكراً لله دائماً.

الرابعة: أن يكون لسانه مشغولاً دائماً بذكر الله، ولا يقول ولا يسمع شيئاً إلاّ حديثه.

الخامسة: الشوق للخلوة يناجي حبيبه ويبوح إليه بأسراره، ويعتذر عن تقصيره.

في الخبر أن الحق تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام:

«يا موسى بن عمران، كذب من زعم أنه يحبني فإذا جنّه الليل نام عنّي، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه، ها أن ذا يا بن عمران مطلع على أحبائي. . .»[1].

تعريب شعر فارسي:

عجباً للمحب كيف ينام	كل نومٍ على المحب حرام
يحرم النوم بشرعة العشاق	فكيف المنام لمقلة المشتاق

فعلى حبيب الله أن يكون قواماً لليل، مشغولاً بالصلاة والدعاء والمناجاة في جوف الليل، كما يقول حافظ:

تعريب شعر فارسي:

هيهات للعين النوم عن جمالك	حاشا يطيق القلب صبراً عن نوالك

السادس: أن لا يأس، ولا يحزن لما فاته من الأمور الدنيوية.

السابع: أن يكون رحيماً بجميع عباد الله، فالمحب يحب أحباء حبيبه، ومن ينتسب إليه. حكي أن المجنون رأى كلباً على طريق ليلى، فصار يدور حوله، وتيودد إليه.

---

(١) جامع السعادات، ج٣، ص١٥٢.

الثامن: أن يكون خائفاً من الهيبة والعظمة الإلهية.

التاسع: أن يخفي محبته، ولا يظهرها، ولا يدعيها أمام الناس.

تتمّة: يجب أن يُعلم أن من وصل إلى مقام الأنس يصير طالباً للخلوة والعزلة. وأن مصاحبة رفاق السوء تشغل قلبه عن التوجه التام لله (عزَّ وجلَّ). أحياناً يرجح بعض العلماء مخالطة الناس على الخلوة والعزلة، بسبب الأخبار الواردة في مدح معاشرة الناس. فيجب أن نبيّن هذا المقام:

إن ظاهر كلام جمع من العلماء هو أن العزلة والخلوة أفضل من معاشرة الناس، للأخبار الواردة في مدح العزلة، وبسبب الفوائد المترتبة عليها. أما الأخبار فهي كثيرة، وقد ذكر الشيخ الجليل الكبير (أحمد بن فهد الحلي) بعضاً منها في كتاب «تحصين العارفين»، فعلى الراغبين الرجوع إليه. وقد قيل أنه ليس هناك أي نبي أو وصي إلاّ وقد اختار العزلة مدة ما، إمّا في بداية حياته أو آخرها.

فوائد العزلة كثيرة، مثل التفرغ للعبادة، وذكر الله، والأنس بمناجاة قاضي الحاجات، والسير في ملكوت السماء والأرض، والنجاة من أكثر المعاصي مثل التكبّر، والرياء، والكذب، والغيبة، والبهتان، ومن جميع آفات اللسان والسمع. والتخلّص من تعلم الأخلاق السيئة من الناس، ومن التهاون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والتخلص من فتنة وفساد الناس، ومن مخاصمتهم، وشرهم، وإيذائهم. وقطع الطمع عن الناس، وقطع طمع الناس به. والتخلص من مجالسة ورؤية أهل الظلم، والفساق، والجهال والحمقى. وغير ذلك من الفوائد الأخرى التي لا حدّ لها.

ظاهر كلام البعض الآخر أن مخالطة الناس أفضل من العزلة، وهو أيضاً للأخبار الدالة عليه، والفوائد المترتبة عليه. أما الأخبار فكما روي من النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«المؤمن ألفٌ مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»[1].

---

(١) جامع السعادات، ج٣، ص١٩٦.

وقال ﷺ أيضاً:

«**إياكم والشعاب، وعليكم بالعامة، والجماعة، والمساجد**»[1].

وكذلك الأخبار الواردة في ذم الهجرة، والابتعاد عن الإخوان.

أما فوئد المخالطة مثل التعليم والتعلم، واكتساب المسائل، وتحصيل الأخلاق الحسنة من المتّصفين بها، واستماع المواعظ والنصائح. وإدراك ثواب الجمعة والجماعة، وعيادة المرضى، وتشييع الجنائز، وزيارة الإخوة، وقضاء حوائج المحتاجين. ورفع ظلم المظلومين، وتفريح قلوب المؤمنين، وتحصيل معيشة العيال، والخلاص من النظر إلى ما في أيدي الناس، وتحصيل ثواب التواضع وأمثال ذلك.

ولا يخفى أن من غير الصواب الحكم المطلق بترجيح أحدهما على الآخرة؛ لأنه من المعلوم أن الشخص الجاهل الذي لم يتعلم شيئاً عن أصوله وفروعه، ولا يفرّق بين الحسن والقبيح، ويستطيع بمخالطته العلماء والصلحاء أن يتعلمها، تكون العزلة في هذه المجال سمّ، كما يقول الشيخ البهائي:

تعريب شعر فارسي:

زلة هي العزلة بدون عين العلم كذا هو الزهد بدون الزاي هدم

أما من كملت نفسه فقد وصل إلى مرتبة الابتهاج، ولذة الطاعة والمناجاة لربه، ولا تترتب على معاشرته للناس فائدة، بل كان يظن بحصول المفاسد، فالعزلة له أفضل.

فالصواب هو أن يقال: إن أفضلية العزلة والمعاشرة على بعضهما البعض تتفاوت نسبة للأشخاص، والأحوال، والزمان والمكان. فيجب على كل شخص أن ينظر في حاله، ويلاحظ فوائد العزلة والمخالطة بالنسبة إليه،

---

(١) جامع السعادات، ج٣، ص٢٠٠.

ويوازنهما، ويختار ما هو الأصلح منهما نسبة إليه ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾[1].

٢٨ ـ الصفة الثامنة والعشرون: السخط. والإنكار، والاعتراض على القضاء الإلهي والتقدير الرباني:

ولا شك أن هذه الصفة منافية لمقتضى التوحيد والإيمان، وموجبة لسخط الرب المنان. فالعبد العاجز، الذليل، الجاهل بأسرار القضاء والقدر، والغافل عن موارد الحِكَم والمصالح، كيف يعترض على أفعال الإله الحكيم الخبير. نقل عن بعض الأخبار القدسية:

«وويل ثم ويل لمن قال لِمَ وكيف»[2].

وجاء في خبر قدسي آخر:

«أنا الله لا إله إلاّ أنا، من لم يصبر على بلائي، ولم يشكر على نعمائي، ولم يرض بقضائي فليتخذ رباً سواي»[3].

وروي أن النبي موسى بن عمران عليه السلام قال في مناجاته: **«أي رب! أي خلقك أحب إليك؟ قال: من إذا أخذت منه المحبوب سالمني، قال: فأي خلقك أنت عليه ساخط؟ قال: من يستخيرني في الأمر، فإذا قضيت له سخط قضائي»**[4].

وضد السخط الرضا الذي هو ترك الاعتراض على المقدرات الإلهية في الباطن والظاهر، قولاً وفعلاً. وصاحب هذه المرتبة هو دائماً في بهجة، ولذة، وسرور، وراحة. فلا تفاوت عنده بين الفقر والغنى، والراحة

---

(١) سورة القيامة، الآية: ١٤.

(٢) جامع السعادات، ج٣، ص٢٠٠.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

والعناء، والعزة والذلة، والمرض والصحة، والموت والحياة. ولا ترجيح لأحدها في نظره على الآخر، لأنه يعلم أن الكل من عند الله. وهو بمحبة الحق التي رسخت في قلبه عاشق لكل أفعاله، ويرى كل ما يصل إليه منه موافق لطبعه ويقول:

تعريب شعر فارسي:

لطف الحبيب وقهره سيّان عندي لا تعجبن أحب منه كل ضدّ

طيب حلو أذاه تراه روحي افتدي فيه الحياة بكل ودٍّ

نقل أن شخصاً من أرباب الرضا وصل سنه إلى سبعين سنة، ولم يقل في هذه المدة: ليت كان كذا، أو ليت لم يكن.

والصبر والرضا هما سرّ جميع الطاعات، فقد نقل عن الإمام الصادق عليه السلام:

«عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له قضاءً إلاّ كان خيراً له، إن قرض بالمقاريض كان خيراً له، وإن ملك مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له»(١).

وقال:

«إن فيما أوحى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى موسى بن عمران عليه السلام، يا موسى بن عمران! ما خلقت خلقاً أحب إليَّ من عبدي المؤمن، وإني إنما ابتليته لما هو خير له، وأعافيه لما هو خير له، وازوي عنه لما هو خير له، وأنا أعلم بما يصلح عبدي. فليصبر على بلائي، وليشكر نعمائي، وليرض بقضائي، اكتبه في الصديقين عندي، إذا عمل برضاي وأطاع أمري»(٢).

اعلم أن الرضا لا ينافي الدعاء، فنحن مأمورون من الشريعة المقدسة بالدعاء، وقد طلبه الحق تعالى منّا، وجعله مفتاح السعادات والحاجات.

---

(١) جامع السعادات، ج٣، ص٢٠٤.

(٢) جامع السعادات، ج٣، ص٢٠٥. أصول الكافي، ج٢، ص٦١.

فالقول بأن الدعاء منافٍ للرضا من الجهل. فلو كان أكل الطعام لدفع الجوع، وشرب الماء لدفع العطش، ومراجعة الطبيب وشرب الأدوية لشفاء الأمراض، مخالفاً لمرتبة الرضا، لكان الدعاء مخالفاً أيضاً. وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكره المعاصي وبغض أهل المعصية لا يخالف أقسام الرضا. فما ورد في فضيلة الرضا وشرفه، لا دخل له في الأمور التكليفية. بل الرضا من الأمور النازلة من مقام الألوهية على العباد بأمر الحق تعالى.

واعلم أن مرتبة الرضا هي من ثمار المحبة، وطريقة تحصيلها السعي لتحصيل المحبة الإلهية بدوام الفكر، والذكر، وسائر الأشياء التي مرت في مقام تحصيل المحبة. إضافة إلى التدبر في ما يناله من عدم رضاه، والفائدة من كرهه وسخطه. فلن يتغير القضاء والقدر لأجله، ولا تتغير أوضاع الوجود ليطمئن قلبه! ولا يترتب أي فائدة من الخوف على المستقبل، وعلى التدبير إلاّ تضييع العمر، وخسارة بركات الوقت. فيجب على طالب مرتبة الرضا أن ينظر في الآيات والأخبار الواردة في معرفة مرتبة أهل البلاء، وأن يستمع ويطالع الأحاديث الواردة في أجر وثواب المصيبة، وأن يعلم أن كل غمّ وراءه كنز، ووراء كل محنة راحة.

فليقطع صحراء البلاء كالرجال الأشداء بقدم الصبر بأمل الثواب، لتسهل مصاعب هذا الطريق عليه. كالمريض الذي يتحمل الحجامة، والفصد، وشرب الأدوية.

٢٩ ـ الصفة التاسعة والعشرون: الحزن:

الذي هو عبارة عن الغمّ الذي يحصل بسبب خسران مطلوب أو فقدان محبوب. فإذا كان ذلك المطلوب والمحبوب من المبدأ الأخروي، فالحزن عليه من الصفات الحسنة. والمذموم منه هو الحزن على فوت المطالب الدنيوية، وهو كصفة الاعتراض والسخط مترتب على كره المقدرات الإلهية.

إنَّ سبب هذه الصفة هو شدّة الرغبة بمشتهيات الطبع، ورغبات النفس، وتوقع البقاء في تعلقات عالم الفناء. وهذه الصفة تميت القلب، وتمنع الإنسان عن الطاعة والعبادة.

وعلاجها أن يتذكر أن كل ما في عالم الكون والفساد جميعه في معرض الفناء والزوال. ولا قيمة لأي شيء من هذا المنزل الحقير ليكون قابلاً للدوام. فإذا طوى هذه المرحلة بعين البصيرة، ينقطع قلبه عن العلاقة بالأسباب الدنيوية، وتزول حسرته على الماضي.

يقول الإمام سيد الأوصياء عليه صلوات الله:

«ما لعليٍّ وزينة الدنيا، وكيف أفرح بلذة تفنى، ونعيم لا يبقى»[1].

فعلى العاقل أن يرضي نفسه بما هو موجود، ولا يأسَ على ما فات. وأن لا يفرح بما يصل إليه من جانب الحق تعالى من النعمة، والرخاء، والمحنة، والبلاء. وأن لا يعلق قلبه بهذه العارية. كما نقل عن سقراط الحكيم أنه قال: «أنا لم أحزن أبداً؛ لأنني لم أعشق شيئاً كي أحزن على فوته».

ويجب أن يعلم أن جميع الأسباب الدنيوية هي أمانة من الرب تعالى عند العباد، ينتفع كل منهم منها بدوره. مثل المعطرة التي تدار في المجلس يتمتع بها واحد من أهل المجلس في كل لحظة. ولا شك أن كل أمانة يجب ردّها، فكيف يحزن العاقل بسبب ردّ الأمانة.

٣٠ ـ الصفة الثلاثون: عدم الاعتماد على الله في الأمور، والاطمئنان والركون إلى الوسائل والوسائط:

هذه الصفة الخبيثة هي من جملة المهلكات العظيمة والمنافية للإيمان. بل هي شعبة من الشرك. يقول رسول الله ﷺ:

---

(١) جامع السعادات، ج٣، ص٢١٥.

«من اعتز بالعبيد أذله الله»[1].

ونقل أنه مكتوب في التوراة:

«ملعون من ثقته بإنسان مثله»[2].

فعلى المؤمن أن يشدّ حزام الهمّة، ويخلص نفسه من هذه الصفة الخبيثة، ويعمل على تحصيل ضدها.

وضدها التوكل الذي هو اعتماد العبد في جميع أموره على الله، وأن يوجه جميع أعماله إليه، وأن ييأس من كل حول وقوّة سوى الحول والقوّة الإلهيّين.

حصول هذه الصفة الشريفة موقوف على الاعتقاد الجازم بأن كل ما يحدث هو من الله، ولا قدرة لأحد سواه على أي أمرٍ إلاّ بواسطته. وكل العلم والقدرة على إدارة أمور العباد له، وأنه يفيض عنايته ورحمته وعطفه على كل فرد من أفراد عباده. فمن كان يعتقد بذلك، يكون اعتماده وارتباط قلبه بالله فقط، بل هو لا يلتفت في أموره إلى نفسه. ولا يتمّ التوكل إلاّ بقوّة اليقين، وقوّة النفس.

اعلم أن التوكل هو أحد منازل طريق السعادة، وأفضل درجات الإيمان. بل هو بمقتضى الآيات القرآنية من جملة الواجبات على المؤمنين. يقول الرسول ﷺ:

«من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤونة، ورزقه من حيث لا يحتسب. ومن انقطع إلى الدنيا، وكله الله إليها»[3].

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال:

---

(١) جامع السعادات، ج٣، ص٢١٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) جامع السعادات، ج٣، ص٢٢١.

«أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى داوود عليه السلام: ما اعتصم بي عبد من عبادي عرفت ذلك من نيته، ثم تكيده السماوات والأرض ومن فيهن إلاّ جعلت له المخرج من بينهن»[1].

وروي أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«أيما عبد أقبل قبل ما يحب الله عزَّ وجلَّ، أقبل الله قبل ما يحب، ومن اعتصم بالله عصمه الله، ومن قبل الله، قبله، لم يبال لو سقطت السماء على الأرض، أو كانت نازلة نزلت على أهل الأرض فشملتهم...»[2].

والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرة إن أعمال العباد والأمور التي تردّ عليهم هي قسمان:

الأول: الأمر الخارج عن قدرته.

والثاني: الأمر غير الخارج عن قدرته.

أما مقتضى التوكل في الأول فهو إيكاله إلى الله وعدم التدبر والسعي فيه.

وأما القسم الثاني فلا منافاة للسعي فيه مع التوكل، بشرط أن لا يكون اعتماده في سعيه على الأسباب والوسائط، بل تكون ثقته بالله تعالى. إذن كل من يظن أن التوكل هو ترك الكسب والعمل، وترك الفكر والتدبر في أموره مطلقاً، وأن يهمل نفسه ويبقى بدون عمل فقد أخطأ كثيراً. فالعمل مطلوب في الشريعة المقدسة، والشارع أمر بطلب الرزق بالأسباب التي قدرها الحق تعالى له، وأمر الناس برفع الأذى عن أنفسهم، وبحفظها من الأشياء المؤذية.

ولا يخفى أن الأسباب التي لا منافاة فيها للتوكل، هي الأسباب التي يكون الوصول للمطلوب، أو دفع الضرر بواسطتها مقطوعاً أو مظنوناً، ولا

---

(١) أصول الكافي، ج٢، ص٦٣، ح١.

(٢) أصول الكافي، ج٢، ص٦٥، ح٤.

يتخلف في أكثر الأوقات. مثل مدّ اليد إلى الطعام لوضعه في الفم، وحمل الزاد للسفر، وجمع رأس المال للتجارة، والإدخار لحال الاضطرار، والمعالجة لدفع المرض وأمثال ذلك.

وأما الأسباب التي هي محض توهم واحتمال، مثل بعض الحيل والأعمال للاحتراز عن الفأل السيء، والتدبير لكل دقيقة، والخداع ونحو ذلك هي منافية للتوكل. فأمثال هذه الأمور ليست أسباباً عند العقلاء يأمر الله «سبحانه» بتحصيلها. بل ما ورد في طلب الرزق هو التساهل في الطلب الذي هو فوق كل الشخص العاطل عن العمل، وأدنى من طلب الحريص كما روي في الرواية، عن الصادق عليه السلام عن الرسول صلى الله عليه وآله: **«ألا إن الروح الأمين نفث في روعي: أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله تعالى وأجملوا في الطلب»**[1].

واعلم أن للتوكل في القوّة والضعف ثلاث درجات:

الأولى: أن تكون حاله في الوثوق بالله «تعالى» كحاله نسبة لوكيله، وهذه أضعف درجات التوكل.

الثانية: أن تكون حاله كحال الطفل بالنسبة لأمه، لا يعرف غيرها، ويتوجه لأمه في كل أمر وأول شيء يجري على لسانه هو «أمي».

الثالثة: أن تكون حاله عند الله مثل الميت عند الغسال، أي أن يرى نفسه أمام قدرة الحق «عزَّ وجلَّ» مثل الميت، وهي أشرف الدرجات. ومن هذا القسم توكل الخليل عليه السلام عندما وضعوه في المنجنيق ليرموه في النار، وسأله الروح الأمين هل لديك حاجة؟ قال: **«لا إليك! قال جبرائيل: فمن لك حاجة إليه فاطلبها منه، قال: «حسبي عن مقالي علمه بحالي»**.

هذه المرتبة من التوكل عزيزة جداً ونادرة الوجود.

---

(١) جامع السعادات، ج٣، ص٢٢٧.

طريقة تحصيل التوكل هي أن يسعى الإنسان لتقوية اعتقاده، وأن يتذكر أن الحق تعالى جاء به من عالم العدم إلى فضاء الوجود دون أن يسعى، أو يدبر لذلك. وجعله في صلب الأب، ورحم الأم دون أن يكون للمسكين علم بذلك، وهيأ له كل ما هو ضروري له. مع هذه النعم تعهد بكفاية أهل التوكل، وضمن معيشتهم، وأخبر عن ذلك في كتابه الكريم؛ فمن المحال أن يخالف ما قاله. لذلك يجب مراقبة حالات الأشخاص الذين أوكلوا أمرهم إلى الله كيف أصلح أمورهم، وقراءة القصص التي تتضمن عجائب صنع الربّ «تعالى» في رزق كثير من المخلوقات من حيث لا تحتسب، في دفع البلاء والآفات التي لم تكن مأمولة النجاة. والنظر في حكايات ذهاب أموال الأغنياء، والأقوياء الذين ذلّوا، والتأمل في الآيات والأخبار. إن التجربة شاهدة على أن من توكل على الله، فالله سبحانه يكفيه. وكيف لا يكون كذلك، وأنت ترى نفسك إذا وكلك شخص في أمرٍ ما، لا تقصر في إنجازه، وتحديد المصلحة فيه بقدر الاستطاعة. فهل ترى الله عزَّ وجلَّ والعياذ بالله عاجزاً وجاهلاً؟ أو أن لطفه بعباده أقل منك نسبةً لموكلك؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

٣١ ـ الصفة الواحدة والثلاثون: كفران النعمة:

وهي عبارة عن عدم معرفة نعمة المنعم، وعدم الفرح بها، وعدم الاستفادة منها فيمّا يرضى به المنعم.

وكفران النعمة الإلهية سبب لشقاء الإنسان في العقبى، وموجب للحرمان ولسلب النعمة في الدنيا. قال سعدي: «أجلُّ الكائنات حسب الظاهر هو الإنسان، وأذل الموجودات هو الكلب، والكلب باتفاق العقلاء عارف بالحق أكثر من الإنسان غير الشاكر».

تعريب شعر فارسي:

الكلب لا ينسى لقمة أبداً ... ولو ضربته في اليوم عدداً
أما السفيه أحسن له أمداً ... يأتيك في أدنى هفوة حردا

وضد الكفران الشكر، وللشكر للمنعم الحقيقي وهو الربّ تعالى أربعة أركان:

الأول: أن تعلم أن جميع النعم منه، وإذا أحسن إليك أحد أن تعلم أن الحق تعالى سخر قلبه ليقدم على ذلك الفعل الحسن، وهذا هو الشكر القلبي.

الثاني: أن يفرح ويسعد بالنعم الإلهية، ليس من باب اللذة والتلذذ، بل من باب أنه يستطاع بواسطتها تحصيل رضا المنعم.

الثالث: أن يحمد الله عزَّ وجلَّ بقلبه ولسانه، والحمد في القلب هو طلب الخير للمخلوقات.

الرابع: أن يصرف النعم الإلهية في رضا المنعم ومقصوده.

يعلم ممّا ذكر أن حقيقة الشكر مركبة من أربعة أمور، لكن كثيراً ما يسمى كل واحد منها شكراً. والشكر أفضل منازل أهل السعادة، وسبب رفع البلاء وزيادة النعماء. لذلك جاء الأمر ترغيباً به. قال الحق تعالى:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1].

وورد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **قال رسول الله** صلى الله عليه وآله: **«الطاعم الشاكر له من الأجر كأجر الصائم المحتسب، والمعافى الشاكر له من الأجر كأجر المبتلى الصابر، والمعطى الشاكر له من الأجر كأجر المحروم القانع»**[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام:

«ثلاث لا يضر معهن شيء: الدعاء عند الكرب، والاستغفار عند الذنب، والشكر عند النعمة»[3].

---

(١) سورة ابراهيم، الآية: ٧.

(٢) أصول الكافي، ج٢، ص٩٤، ح١.

(٣) أصول الكافي، ج٢، ص٩٥، ح٢.

وطريقة تحصيل الشكر تتمّ بعدة أمور:

الأول: المعرفة والتفكر في الصنع الإلهي، وأنواع النعم الظاهرية والباطنية.

الثاني: النظر إلى من هو أدنى منه في الأمور المتعلقة بالدنيا، وإلى من هو فوقه في أمور الدين.

الثالث: التفكر في الموتى، وفي أن غاية مرادهم هو أن يرجعوا إلى الدنيا، ليعملوا الخير هنا. ثم افرض نفسك منهم، وتصور أن استجيب طلبك ورجعت إلى الدنيا.

الرابع: أن يتذكر الإنسان ما واجهه من المصائب العظيمة، والأمراض المهلكة التي لم يكن لديه أمل بالنجاة منها، ويعدَّ الخلاص منها نعمة.

الخامس: أن يشكر عند كل مصيبة وبلاء أصابه، أنه لم تصبه مصيبة أعظم، وأنه لم يكن بلاؤه في دينه.

تعريب شعر فارسي:

إن أصابك البلاء يوماً فلا تغتم   وأشكر الله على أن لم يكن أعظم

وبالجملة إذا علمت أن أحد أركان الشكر هو صرف النعم في المصرف الذي فيه رضا المنعم، فيجب على الشاكر معرفة ما فيه رضا المنعم، والعلم بما يكرهه وما هو خلاف رضاه؛ ليتمكن من أداء الشكر، وترك الكفران. وسبيل المستحبات والمكروهات عند الله «عزَّ وجلَّ» هو طريقة الشرع المقدس الذي بين جميع ما فيه رضا الله، أو خلاف رضاه، وعبر عن الأول بالواجبات والمستحبات، وعن الثاني بالمحرمات والمكروهات. فمن لم يكن مطلعاً على أحكام الشريعة في جميع الأفعال، لن يتمكن من أداء الشكر الإلهي.

اعلم أن سبب تقصير معظم الناس في شكر الباري عزَّ وجلَّ، هو قلّة معرفته بأن جميع النعم هي من الحق تعالى، أو قلّة معرفتهم بأقسام النعم. أو

لجهلهم بحقيقة الشكر، وظنهم أن حقيقة الشكر بقول «الحمد لله» و«شكراً لله». أو بسبب الغفلة، وعدم الالتفات والتفكير بأداء الشكر المنعم. أو بسبب عموم بعض الأشياء عند جميع الأشخاص والإلفة والعادة بها، لذلك لا يعدونها من النعم. كما نرى أن الأكثر غافلون عن شكر نعمة الهواء الذي هو سبب نعمة التنفس، ونعمة الأرض التي هي محل القرار. وكذلك يعدون صحة العين والأذن وسائر الأعضاء نعمة، فإذا انقطع نفسهم ثم عاد، أو عميت عيونهم ثم أبصروا حينذاك يقومون بالشكر. هذه هي غاية الجهل، فشكر شخص كهذا موقوف على زوال النعمة منه، ووصولها إليه ثانية، والحال أن النعمة الدائمة أحق بالشكر. ومن تأمل علم أن نعمة الله في شربة ماء عند العطش، أفضل من ملك الأرض ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1].

٣٢ ـ الصفة الثانية والثلاثون: الجزع وعدم التحمّل:

وهو عبارة عن ترك عنان النفس في المصيبة والبلاء، والصراخ والعويل والأنين، وتمزيق اللباس وضرب الوجه. والحزن والعبوس داخل في الجزع.

وسببه العام ضعف النفس، وهذه الصفة من المهلكات، لأنها في الحقيقة اعتراض على قضاء الله، وكراهة فعله وحكمه. فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«الجزع عند البلاء تمام المحنة»[2].

وقال:

«إن أعظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»[3].

---

(١) سورة ابراهيم، الآية: ٣٤.

(٢) جامع السعادات، ج٣، ص٢٧٨.

(٣) جامع السعادات، ج٣، ص٢٧٩.

وضد الجزع الصبر، وهو عدم الاضطراب في البلاء والمصائب وهو الصبر على الشدائد، وللصبر أقسام أخر، مثل: الصبر في المعارك والحروب الذي هو من مصاديق الشجاعة، والصبر حال الغضب الذي هوالحلم، والصبر على مشقة الطاعات، والصبر على مقتضيات الشهوات، والصبر على الزهد وغيرها..

في الحقيقة إن أكثر الأخلاق داخلة في الصبر، ومرتبة الصبر هي من المراتب الرفيعة. وقد نسب الحق تعالى أكثر الخيرات للصبر، وجعل أكثر درجات الجنة مرتبطة به، وذكره في أكثر من سبعين موضعاً من كتابه؛ ووصف الصابر بأوصاف كثيرة، وجعل الصلوات والرحمة والهداية للصابرين، وجعل نفسه هادياً لهم. فمن تعظيم الله عزَّ وجلَّ ومعرفة حقه، أن لا تشكو مصيبتك ولا تتحدث بها[1].

وروي أيضاً عن رسول الله ﷺ:

الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له»[2].

وطريق تحصيل الصبر أمور عدة:

الأول: كثرة النظر في الأخبار والأحاديث التي وردت في فضيلة الابتلاء في الدنيا، وأن بإزاء كل مصيبة رفع درجة أو محو سيئة. وأن يتيقن أنه لا خير في من لم يبتل بمصيبة، ويعلم أن ما يصله بالصبر هو أكثر بكثير ممّا يفوته بسبب البلاء.

الثاني: أن يتذكر أن زمان المصيبة قليل، ووقتها قصير، وأنه مستخلص منها عن قريب، ثم يذهب إلى منزل الراحة والأمان.

---

(١) جامع السعادات، ج٣، ص٢٩١.

(٢) جامع السعادات، ج٣، ص٢٨٧.

الثالث: هو التأمل في الفائدة من عدم الصبر ومن الجزع، فالمقدر واقع، ولا فائدة من الجزع.

الرابع: ملاحظة أحوال الأشخاص الذين أصيبوا ببلاءٍ أعظم من البلاء الذي ابتلي به.

الخامس: أن يعلم أن الابتلاء والمصيبة دليل الفضل والسعادة.

السادس: أن الإنسان يتكامل برياضة المصائب.

السابع: أن يتذكر أنه ثبت بالتجربة والاختبار أن بعد كل حزن فرح وراحة.

الثامن: أن يتذكر أن هذه المصيبة هي من عند الحق تعالى، الذي هو أحب الأشياء إليه، وهو لا يريد إلاّ خيره وصلاحه.

التاسع: أن يتتبع أحوال المقربين لله تعالى، ويرى ابتلاءهم وصبرهم، ليرغب بالصبر، ويحصل لديه الاستعداد له.

واعلم أن المراد من الصبر هو ما ذكر. أمّا حرقة القلب وجريان الدمع الذي هو مقتضى البشرية فلا يخرجان العبد من حدّ الصبر فقد روي أن النبي ﷺ عندما توفي ولده ابراهيم جرى الدمع من عينه، فقال له شخص: ألم تمنعنا من أمثال هذا؟

قال ﷺ:

«العين تدمع والقلب يحزن ولا يقول ما يسخط الرب»(١).

نظير هذا الأمر أن يرضى المريض بالفصد والحجامة ويسعد بذلك، ولكنه يتأثر بالألم.

---

(١) جامع السعادات، ج٣، ص٣٠١.

٣٣ ـ الصفة الثالثة والثلاثون: الفسق:

وهو عبارة عن الخروج عن طاعة الله وعدم عبادته.

وضده الطاعة والإتيان بالعبادات المقررة في الشريعة المقدسة، وعمدة العبادات الشرعية هي:

الطهارة، والصلاة، والذكر، والدعاء، وتلاوة القرآن المجيد، والصوم، والحج، وزيارة النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام، والجهاد، وأداء الحق المعروف الشامل للزكاة، والخمس، والصدقات المستحبة، وغيرها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

تفصيل هذه الأمور موجود في الكتب الفقهية، وآدابها وأسرارها مذكورة في الكتب الأخلاقية، ولا يسع هذا المختصر ذكرها، فليرجع إلى الكتب الأخرى.

خاتمة

اعلم أن اللازم على طالب طهارة النفس من الأوصاف الرذيلة، وتربيتها بالصفات الجميلة، أن يقوم بعدة أمور:

الأول: أن يجتنب مصاحبة الأراذل والأشرار، وأن يبتعد عن مجالسة أصحاب الأخلاق السيئة. لأن الصحبة لها تأثير عظيم فطبع الإنسان سرّاق، وهو يأخذ ما رآه مراراً من الآخرين.

وأن يحترز أيضاً عن سماع قصص وحكايات الأشرار، وعن استماع ما صدر منهم. وأن يطلع على قصص السابقين، والماضين، وعظماء الدين والملّة، ويستمع دائماً إلى ما يرد عن أحوالهم وأفعالهم وأطوارهم.

الثاني: أن يواظب دائماً على الأعمال التي هي من آثار الصفات الحسنة، وأن يجبر النفس على الأفعال التي هي مقتضى هذه الصفة التي هو راغب بتحصيلها، وبلوغ درجتها، أو في صددّ بقائها والمحافظة عليها.

الثالث: أن يكون دائماً مراقباً لأعماله، ومنتبهاً لأحواله وأفعاله، وأن يتأمل ابتداءً في كل عمل يريد أن يعمله، وأن يفكر كي لا يصدر منه خلاف مقتضى الخلق الحسن.

وإذا ظهر منه أحياناً أمر لا يوافق الصفة الحميدة فليؤدب نفسه ويؤنبها ويؤاخذها، بأن يلوم نفسه ويؤنبها أولاً، ثم يتحمّل ما لا ترغب به، وأن لا

يغفل عنها أبداً، ولا يمتنع عن الجدّ والاجتهاد في كسب الصفات الحسنة والمحافظة عليها.

الرابع: أن يحترز عمّا يبعث على تحريك القوّة الشهويّة أو الغضبيّة، كأن يمنع عينه وأذنه وقلبه عن رؤية وسماع وتصور أي شيءٍ يهيج الغضب، أو الشهوة. وأن يكثر السعي في حفظ قلبه عن الخيال، لأنه في التصور والخيال تستعر نار الشهوة والغضب، ثم تسري إلى الأعضاء والجوارح. أما مجرد الرؤية والسماع بدون أن ينشغل القلب، فلا تأثير له يذكر. ومن لا يحفظ هاتين القوّتين من الهيجان، فهو كمن يحرّر الأسد المفترس أو الكلب المسعور، ثم يريد بعد ذلك أن ينجو من شره.

الخامس: أن لا يصدق خداع نفسه، ولا يحمل أفعاله على الصحة. وأن يستقصي ويسعى سعياً بالغاً في طلب عيوبه، ويتعرف بدقة على خفايا معايبه، فإذا صادف شيئاً منها سعى في أزالته.

وأن يعلم أن النفس عاشقة لصفاتها وأفعالها، ولهذه الجهة تجد أعمالها وأفعالها حسنة. بنظرها، ولا تعرف عيوبها بدون تأمل ودقة نظر. فيجب تفحص معائب النفس بواسطة الأصدقاء والمحبين، وعليهم أن يطلعوه عليها. والأفضل أن يختار واحداً من الأصدقاء الرحماء، ويطلب منه أن يراقب أحواله، وأن يتأمل في نفسه، فإذا رأى في أخلاقه قبيحاً حَسُنَ في نظره، فليطلعه عليه ليسعى في تبديله. فإذا عرفه بعيب سعد بذلك وشكره، وعمل على إزالته، لكي يتمكن من الاعتماد على ذلكالصديق. ولكن هذا النحو من الأصدقاء عزيز الوجود؛ لأن أغلب الأصدقاء لا يخلون من التملق والأغراض الفاسدة. وكثيراً ما ينتفع الأعداء بهذا المجال أكثر، لأن الصديق قليلاً ما يعمل على التجسس على العيوب، بل بما أن نظره نظر محبة، فقد لا يرى أي عيب، كما قيل في هذا المعنى:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدي المساويا

فالعالم من إذا أظهر الأعداء عيباً له شكرهم.

من الأمور النافعة في هذا المقام، أن يجعل سالك الدين سلوك الآخرين مرآة لعيوبه، وأن يتأمل فيمّا يصدر منهم في حسنه وقبحه. فإذا صادف قبيحاً، فليعلم أن هذا العمل إذا صدر منه، فهو قبيح أيضاً، وإذا وجد أمراً حسناً فليعلم أن هذا العمل إذا صدر منه فهو حسن أيضاً. فليجتهد في إزالة قبائحه، وليسْعَ سعياً بليغاً في تحصيل الأخلاق الحسنة.

ويجب على طالب الأوصاف الجميلة أن يفتح يومياً كتاب أفعاله، ويمرّ عليه كله، ويتفحص ما صدر منه، فإن لم يحدث منه سوء، ولم يصدر منه فعل قبيح، حمد الله وشكر توفيقه. وإذا كان قد ارتكب قبيحاً، عاتب نفسه، ولامها وتاب، وأناب.

واعلم أن من الأشياء التي لها المدخلية التامة في هذا المقام، بل في كل مقصد ومقام، هي كثرة المسألة، والتضرع، والابتهال للخالق ذي الجلال، القادر والمتعال.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



الفهرس


بسم الله الرحمن الرحيم